الإلهي الذكر

مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه
الخليفة الثاني للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

الذكر الإلهي

(خطاب في الجلسة السنوية في عام ١٩١٦)

ألقاه

حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه

الخليفة الثاني للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

ترجمة: محمد طاهر نديم

Adh-Dhikrul-Ilāhī
(The Remembrance of Allah)

اسم الكتاب: الذكر الإلهي

الطبعة الأولى: ١٤٣٦هـ الموافق لـ ٢٠١٥م

By

Ḥaḍrat Mirza Bashir-ud-Din Mahmud Ahmad
Khalīfatul-Masīḥ II

Translated from Urdu by: Muhammad Tahir Nadeem

First Arabic translation published in the UK in 2015

© Islam International Publications Ltd.

Published by:
Islam International Publications Ltd.
Islamabad, Sheephatch Lane
Tilford, Surrey, GU10 2AQ
United Kingdom

Printed in the UK at:
Raqeem Press
Tilford

For further information please contact:
Phone: +44 1252 784970
Fax: +44 1252 781692
www.islamahmadiyya.net

Cover designed by: Anan Massoud Odeh

ISBN: 978-1-84880-450-0

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

مقدمة الناشر أ

وجوب الاستفادة من الجلسة ٣

أمورٌ كشفها الله تعالى عليَّ من خلال سردي لكم طرق الدعاء ٥

سيستجاب دعاؤكم بالعمل بمحتوى هذا الموضوع ٧

الحكمة في عدم تناولي هذا الموضوع في السنة الماضية ٧

تقسيم موضوع الذكر الإلهي ٨

ماذا يعني الذكر الإلهي؟ ٩

أهمية الموضوع ٩

سبب غفلة الناس عن موضوع ذكر الله ١٣

طريق الذكر الإلهي عند المتصوفة المعاصرين ٢٠

قصة شيخ صوفي طمّاع ٢٤

الحالات الخمس للذكر الإلهي ٢٩

إنها أمور ممنوعة ومحرمة ٣٤

الذكر الإلهي وطرقه الأربع ٣٤

نوعان آخران من الذكر ٣٨
طرق الأذكار الأخرى ٤٠
الاحتياطات المتعلقة بالذكر الإلهي ٤٣
أنسب الأوقات للذكر الإلهي ٤٨
الصلاة؛ أهم أقسام الذكر ٥٢
فضل النوافل ٥٣
الوسائل الثلاث عشرة للقيام لصلاة التهجد ٥٥
طرق الخشوع في الصلاة ٦٧
الذكر الجهري ٩٧
فوائد الذكر الإلهي ٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم

مقدمة الناشر

هذا الكتاب هو في الأصل خطاب هام ألقاه حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد الخليفة الثاني للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام في الجلسة السنوية في عام ١٩١٦م تناول فيه بعض الأمور المتعلقة بالذكر الإلهي بأسلوب جذاب وفريد. فلقد سلّط فيه حضرته الضوء على المراد من الذكر الإلهي وضرورته وأنواعه ومنافعه، كما تطرق إلى كيفية الذكر عند الصوفية المعاصرين وطريقة ذكرهم وأنواع البدعات التي يتخبطون فيها مما يبعدهم عن الله.

لقد ذكر حضرته أن للذكر أربعة أنواع وهي:

١) الصلاة ٢) تلاوة القرآن ٣) الإقرار باللسان بصفات الله وترديدها وبيان تفاصيلها ٤) ذكر صفات الله في الخلوة وأمام الناس في المجالس المتنوعة.

وذكر في هذا السياق طرقًا لجعلِ الذكر الإلهي مقبولا عند الله.

ثم ذكر أوقاتا مُثلى للذكر الإلهي، كما أكد على أهمية الذكر الذي يوصل الإنسان إلى المقام المحمود وهو صلاة التهجد، وفصَّل في أكثر من عشر طرق للاهتمام بها والالتزام بها.

وذكر أكثر من عشرين طريقًا على ضوء القرآن الكريم والحديث النبوي للخشوع في الصلاة، وفي النهاية قدّم أكثر من عشرة منافع عظيمة للذكر الإلهي.

كان هذا الخطاب قد عُرِّب لأول مرة في الخمسينات من القرن الماضي على يد الأستاذ المرحوم محمد بسيوني من الإنجليزية بشيء من التصرف، فندعو الله تعالى أن يجعل عمله هذا في ميزان حسناته، آمين.

ونقدّم الآن الترجمة الكاملة لهذا الخطاب الرائع مترجمة من الأصل الأوردي راجين من المولى أن ينفع به الكثيرين رحمةً منه وفضلاً، آمين.

ولا يسعنا أخيرا إلا أن نشكر ونطلب الدعاء لإخواننا الذين ساهموا في إخراج هذه الترجمة، وهم الأساتذه الأفاضل: فتحي عبد السلام، تميم أبو دقة، هاني طاهر، د. علي البراقي، د. وسام البراقي، سامح مصطفى، هاني الزهيري، هالة شحاتة عطية، وعبد المؤمن طاهر، فجزاهم الله أحسن الجزاء، آمين.

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم

خطاب المصلح الموعود رضي الله عنه

بمناسبة الجلسة السنوية

بتاريخ ٢٨ ديسمبر/كانون الأول ١٩١٦

أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ *سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى * سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى * وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى * فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى *

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى *صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (الأعلى ١-٢٠)

موضوع خطابي اليوم -كما أخبرت بالأمس- يتعلق بأمرٍ أعلمه يقينًا أنه غاية في الأهمية. لا أقول هذا بناء على مجرد اجتهاد أو استنتاج بل هو حكم القرآن الكريم كما نصّت عليه آياته. ولعل البعض يقول لدى سماعه هذا الموضوع إنه أمر عاديٌ جدًّا بل وكنا نعرفه من قبل. لا يعلم ما في صدور الناس إلا الله تعالى، غير أنني أستطيع القول بناء على الظروف السائدة أن هذا الخطاب سيتناول أمورًا لا يعلمها معظم الناس، وإني لم أعثر عليها في أي كتاب.

لما كان الموضوع عامًا ويمكن أن يقول معظم الناس لدى سماعهم عنوانه: إنه عادي ومعروف منذ القدم؛ لذلك أرى قبل إلقائه ضروريًّا أن أنبّهكم إلى أن له أهمية قصوى، فأرجو أن تستمعوا له بآذان مصغية.

سأذكر فيه بتوفيق من الله تعالى كثيرًا من الأمور التي إذا سجلتموها عندكم ثم عملتم بها فسيجعلها الله تعالى لكم مجلبةً لخير وبركة. ولكن قبل التطرُّق إلى الموضوع الرئيس أريد أن أتكلم معكم في أمر آخر وهو:

وجوب الاستفادة من الجلسة

إن بعض الذين يقدمون إلى هنا من أجل الاشتراك في الجلسة يمضون وقتَهم في التجوُّل هنا وهناك، وهذا أمر سيئ جدًّا. ما منّ الله عليكم بالأموال حتى تضيّعوها. فلو كان هؤلاء يريدون أن يأتوا ويتجولوا هنا وهناك عبثًا فما كانت ثمة حاجة إلى مجيئهم أصلًا. من يأتي إلى هنا لا يصل إلّا بعد تكبّد عناء السفر وبذلِ كثير من الأموال من أجل الاستماع والاستفادة، ولكن بلغني أن بعض الناس يقومون عند خطابات بعض الخطباء بحجة أنهم على دراية بهذه الأمور سلفًا. أقول لمثل هؤلاء الناس: لو كان موقفهم صحيحًا في تركهم الاستماع إلى ما يعلمون سلفًا أو لِما سمعوه من قبل، لَمَا كان عليهم أن يتلوا القرآن الكريم مرة بعد أخرى، بل تكفيهم القراءة الأولى، وعليهم أن يتبعوا الطريق نفسه بخصوص الصلاة والصوم أيضًا. ولكنه ليس بعمل صحيح. بل الحق أنه يجب الإصغاء بكل رغبة وانتباه إلى ما يُلقى على المسامع حتى ولو كان أحد سمعه من قبل، لأن ذلك أيضًا يفيد كثيرًا إذ ينقش هذا الأمر في القلب نقشًا.

إضافة إلى ذلك هناك أمر هام آخر وهو إذا قام أحد من المجلس يراه الثاني فيقوم هو أيضًا ثم يقوم الثالث وهكذا دواليك حتى يقوم

كثير من الناس، وهو أمر سيئ جدًّا. يمكن للمضطر أن يقوم ويخرج كأن يريد قضاء الحاجة؛ ولكن يجب عليه أن يسرع في العودة حتى يتحقّق له ما جاء لأجله، وينتفع بما أراد الانتفاع منه من خلال اشتراكه في الجلسة. لقد ذكر الرسول الكريم ﷺ أنه إذا جلس شخص في مجلس الصالحين استفاد استفادة أخرى أيضًا غير الاستماع إلى أحاديثهم والعمل بها، فقد ورد في الحديث أنه كان بعض الناس جالسين في مجلسٍ ما فسأل الله الملائكة: ماذا يفعل عبادي هؤلاء؟ (يقول النبي الكريم ﷺ بأن الله تعالى يسأل عنهم ليس لأنه لا يعرفهم بل هو يعرفهم ويعلم تمامًا بالأمر الواقع) فردّت الملائكة: إنهم يذكرون الله. فقال الله تعالى: لقد أعطيتهم ما يسألون. قالت الملائكة: لقد كان من بينهم شخص لم يذكر الله بل جلس معهم دون أي قصد منه. فقال الله تعالى: هم القوم لا يشقى جليسهم، فسأُنعم عليه أيضًا وأكرمه. (انظر: البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله)، والمراد من ذلك أن من يجلس مع الصالحين إنْ لم تحصل له الهداية في المرة الأولى فسينالها في المرة الثانية حتمًا، لأنه لا يمكن أن يظل كافرًا بعد جلوسه في مثل هذا المجلس بإخلاص القلب. ولا يخص هذا الكلام مَن يجلس معهم مرة ثم ينقطع ولا يعود إليهم، لأنه سيظل كافرًا. فأقول لكم أن تظلوا

جالسين في هذا المجلس قدر المستطاع، وإذا اضطر أحد إلى الخروج فله أن يخرج، ولكن عليه أن يعود مسرعًا بعد قضاء الحاجة.

أمورٌ كشفها الله تعالى عليَّ من خلال سردي لكم طرق الدعاء

لقد ألقيت في الأيام الأخيرة بعض الخطب عن موضوع الدعاء، وذُكرتْ فيها مواضيع هامة استفاد منها كثير من الناس. لقد وصلتني بعض الرسائل قال فيها أصحابها بأهم استفادوا كثيرًا من تلك الخطب. كما وصلتني رسالة من شخص من لاهور ولم أتمكّن من قراءة اسمه، ويبدو أن الله تعالى يستره. لقد كتب هذا الشخص: ماذا فعلتَ؟! لقد أخبرتَ عن تلك الطرق التي كانت خفيّة منذ زمن طويل، ولم يكن المتصوّفة يُخبرون إلا عن بعضِها ولمن يقوم بخدمتهم لنصف سنة أو سنة كاملة، ولكنك قد كشفت عن كل هذه الطرق. وكتب أيضًا: لعلك كنتَ مضطرًا إلى فعل ذلك لأنك تُكِنّ لجماعتك حبًّا كبيرًا، مما حدا بك إلى إخبارهم بها.

أقول: لم أُطلعهم على هذه الطرق لأنني أحبّ جماعتي حبًّا جمًّا. لا شك أنني أحب جماعتي محبة لا يحب بها أحد أتباعه وذويه، ولكنني أطلعتُهم على تلك الطرق لشيء آخر وهو أنني أعلم يقينًا أن الله الذي أخبرني عنها هو إله عظيم بحيث كلما أنفقنا رزقه وأمواله

التي أعطانا إياها ازدادت وأوجبتْ إنعامات كبيرة. وعليه فلم أُفرغ بيتي بـــإخباري عن هذه الطرق بل ملأته أكثرَ مما هو. كما كنت على يقين بأن إخباري عنها لن يضرني شيئًا، لأن العلم لا ينقص عند بذله بل يزداد كلما زِيدَ إنفاقه. وحتى لو كنت على يقين بأنه يضرني مع ذلك كان لا بد لي أن أخبر به ولو نفِد كل ما كنت أعرفه من هذه الطرق، وذلك على شاكلة الصحابة الكرام رضي الله عنهم الذين كانوا يقولون بأنه لو وُضع السيف على رقابنا ثم ظننا أننا نُنفذ كلمة سمعناها من النبي ﷺ لأنفذناها قبل قطع رقابنا. (انظر: البخاري، كتاب العلم)

على أية حال، لقد ذكرت ما كان بوسعي في ذلك الوقت، وخطر ببالي أنني ذكرت كل الطرق المتعلّقة بالدعاء، ولكن لما جئت البيت بعد الصلاة وبدأت الدعاء فتح الله تعالى علي طرقًا أخرى كثيرة لم تخطر ببالي من قبل.

واليوم أيضًا، كنت قد كتبت بعض الملاحظات على الموضوع الذي أريد الحديث عنه، وبينما كنت في الطريق إلى هنا ألقى الله تعالى في بالي أمورًا أخرى كثيرة.

على أية حال، كنت قد أطلعْت أفراد الجماعة على طرق الدعاء وكان ذلك ضروريًا جدًّا.

سيستجاب دعاؤكم بالعمل بمحتوى هذا الموضوع

أما الذي أريد ذكره الآن فهو أهم حتى من طرق الدعاء، فلو استوعبتموه وعملتم به استجيب دعاؤكم تلقائيًا.

الحكمة في عدم تناولي هذا الموضوع في السنة الماضية

كنت أريد أن أتناول هذا الموضوع في السنة الماضية، ولكن لما بدأت موضوعًا هامًا آخر أدّى إلى تأخير هذا الموضوع. وكانت حكمة الله تعالى في ذلك أنني لما بدأت هذه المرة كتابة ملاحظات حول هذا الموضوع بدت ملاحظاتي عنه في السنة الماضية وكأنها ملاحظات تلميذ أمام ملاحظات الأستاذ، وذلك لأن الله تعالى أفهمني أمورًا أكثر من السابق.

باختصار، أريد أن أخبركم اليوم عن موضوع الذكر الإلهي، وأُلقي على مسامعكم هذا الموضوع في هذه المناسبة، إذ إن أكثر الناس لا تصلهم كثير من الأمور المذكورة في مناسبات شتى لأنهم ليسوا من قرّاء الجرائد.[1]

[1] ولا سيما جريدة الفضل لأن خطب حضرته كانت تنشر فيها بترتيب وتنسيق بعد بذل جهد كبير. (الناشر)

لقد نُشرت الآن طرق الدعاء التي سبق أن أخبرتكم بها، ولكن لعل العديد منكم قد علموا اليوم أنني أخبرت بشيء عن الدعاء. لأجل ذلك اخترت هذه المناسبة لإلقاء موضوع الذكر الإلهي لأن طرحه هنا يؤدي إلى استماع ألوفٍ مؤلفة من الناس، ويُنقل الموضوع بواسطتهم إلى الآخرين.

تقسيم موضوع الذكر الإلهي

وإليكم ما أريد تناوله من أمور تتعلق بهذا الموضوع:

١) ما المراد من الذكر الإلهي أو ذكر الله؟

٢) ما الحاجة إلى الذكر الإلهي؟

٣) ما هي أنواعه؟

٤) ما الاحتياطات التي يجب على الإنسان مراعاتها في الذكر الإلهي؟

٥) ما هي أخطاء الناس في فهم الذكر الإلهي؟

٦) ما هي طرق طرد الشيطان وما هي وسائل التركيز في الصلاة لمن يقولون إنهم لا يستطيعون ذلك والشيطان يوسوس في قلوبهم؟

هذه هي الأمور التي سأسلِّط الضوء عليها اليوم بتوفيق من الله تعالى. ولعلكم فهمتم من خلال هذه العناوين أنه ليس بموضوع يتعلّق بفئة خاصة من الناس بل هو يهمّ الجميع سواء أكانوا علية القوم أم أدناهم، أغنياء كانوا أم فقراء، صغارًا كانوا أو كبارًا. فاعلموا أنه ينبغي ألا تهملوا أي أمر سمعتموه مني ولو كنتم تحسبونه عاديًا جدًّا، لأنكم إذا عملتم به فسيثبت لكم من خلال التجربة أنه لم يكن عاديًا، بل كان كفيلًا بإحداث نتائج عظيمة.

ماذا يعني الذكر الإلهي؟

الذكر: استحضار الشيء في الذهن بحيث لا يغيب عنه؛ وذكر الله يعني تذكُّر حضور الله تعالى، والطريق المستخدم لتذكُّر حضور الله تعالى يسمى بذكر الله، وهو استحضار صفات الله تعالى وترديدها باللسان وإقرارها بالقلب والتفكير في قدراته تعالى.

أهمية الموضوع

ما هي أهمية هذا الموضوع؟ أقول مختصرًا بأنه موضوع غاية في الأهمية. قد يظنّ أحدكم بأنني أعده هامًّا جدًّا لأنني ألقي حوله خطابي هذا. كلا، بل لأن الله تعالى قد أعطاه هذه الأهمية وعدّه كبيرًا لقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت: ٤٦) أي أن

ذكر الله تعالى هو أكبر العبادات كلها. فإذا كان الله تعالى يعتبر ذكره أعظمَ شأنا، فلست أنا من أعطى لهذا الموضوع أهمية قصوى بل هو قول الله تعالى.

والسؤال الآن هو أنه ما دام الله تعالى قد جعل هذا الموضوع أعظم المواضيع شأنًا وأهمية، فلا بد من أن يكون سبحانه قد أمرنا بالتوجه إليه أكثر من جميع المواضيع الأخرى. فإذا أمعنّا النظر في القرآن الكريم بحثًا عن هذا الأمر وجدنا أن الله تعالى قد وجّه أنظارنا إلى الاهتمام بذكر الله مرارًا وتكرارًا، يقول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الإنسان: ٢٦) أي يا عبدي، اذكرني صباح مساء. وقال النبي ﷺ إن المجلس الذي يُذكر فيه اسم الله تحفّه الملائكة من كل جانب وتُنـــزّل عليه رحمة الله تعالى.

لقد تناولت هذا الموضوع أثناء الجلسة لأن ألوفًا من الناس يتوافدون إلى هنا من أماكن بعيدة، فإن تناولي لهذا الموضوع بينهم يكون مدعاة لنـــزول ملائكة الرحمة ولإنزال البركة. وعندما يعودون إلى بيوتهم فإنهم يحملون هذه الأمور معهم ويُسمِعون مَن لم يستطيعوا المجيء إلى هنا، وهكذا تنتشر البركة في الجماعة كلها، ولأجل ذلك اخترت هذا اليوم لطرح الموضوع المذكور.

لقد ذكرت آنفًا قول النبي ﷺ أن المجلس الذي يُذكر فيه اسم الله تحفّه الملائكة وتُنــزِل رحمةَ الله وبركتَه على كلّ مَن فيه. ومن هنا تتجلى لنا أهمية الذكر الإلهي، إذ تجتمع الملائكة أيضًا لسماعه وتُنــزِل الرحمةَ على المستمعين من العباد، وكم ستقدّر ملائكة الله قدر مَن صار في مرتبة معلّمٍ لهم! ذلك لأن من يذكر الله تعالى يجتمع الملائكة عنده وكلما أكثرَ من ذكر الله تعالى تكاثرت لديه الملائكة وولّدت في قلبه دوافع لأعمال البر والخيرات.

إن نزول الملائكة ليس وهمًا بل هو أمر يقيني، ولقد رأيتُ الملائكة، ومرة تجاذبت معهم أطراف الحديث أيضا.

فمن يذكر الله تعالى تأتِهِ الملائكة وتُنشئْ معه الصداقة والعلاقة الوطيدة.[2]

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ (المنافقون: ١٠)

---

[2] هنا طرح أحد على حضرته السؤال التالي: كيف كانت تبدو الملائكة التي رأيتها؟ قال حضرته: للملائكة صور وأشكال مختلفة، ولقد رأيتهم في ألوان مختلفة وبعض تلك الألوان كانت فريدة من نوعها بحيث لا يوجد لها مثيل في الدنيا. الحقيقة أنه لا يسع الإنسان رؤية الملائكة على أشكالها الأصلية، لذلك فإنها تتمثّل أحيانًا بشرًا أو شكلاً وصورةً أخرى. (الناشر)

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الأحزاب: ٤٢-٤٣)

أي: يا أيها المؤمنون، لا تمنعكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، بل يجب ألا تُقيموا أي وزن لكل ما يحول دون ذكركم لله تعالى، وألا تقوموا بعمل يؤدي بكم إلى ترك ذكر الله؛ بل ينبغي أن تُكثروا من ذكر الله وتسبحوه صباح مساء.

وقال النبي ﷺ فيما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ. (البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل)

وقال ﷺ: "لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا حَفَّتْهُم الْمَلَائِكَةُ." (مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر)

أي أنه حيٌّ من يذكر الله تعالى وميّتٌ من لا يذكره.

ومن هنا أيضًا تتجلى أهمية ذكر الله وعظمته. ثم هناك رواية في الترمذي عن أبي الدرداء قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا

أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا بَلَى قَالَ ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى. (الترمذي، أبواب الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر)

وقد ورد في حديث آخر أن النبي ﷺ قال: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ تَعَاطِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَمِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ غَدًا فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: ذِكْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. (مسند أحمد بن حنبل، مسند الأنصار)

قالوا: هل هو أكبر درجة من الجهاد أيضًا؟ قال: نعم، لأن ذكر الله تعالى يحض على الجهاد في سبيله. هذه هي أهمية الذكر الإلهي وضرورته.

سبب غفلة الناس عن موضوع ذكر الله

لم تنتبه جماعتنا أيضًا إلى بعض دقائق هذا الموضوع، وإن انتبهت إليها فالاهتمام بها قليل جدًّا. لقد فطرني الله تعالى على التفكير والتدبُّر، ومنذ نعومة أظفاري إلى هذا اليوم طفقت أفكر في الطرق الملائمة لتدارك ضعف جماعتنا المتعلِّق بذكر الله.

لقد ركّز المسيح الموعود عليه السلام على موضوع الدعاء، وأشكر الله تعالى على أن جماعتنا تهتم كثيرًا بموضوع الدعاء. كما أكد المسيح

الموعود عليه السلام على أهمية الذكر الإلهي كثيرًا، ولكن لم تنتبه الجماعة إليه إلى الآن كما ينبغي. ومن أبرز الأسباب المؤدية إلى هذا التأخر هو أن الثقافة الإنجليزية قد غيرت أفكار الناس وأصبح الناس يرون -تحت تأثير الثقافة الأوروبية- أنه لا فائدة تُرجى من مجرد ترديد اسم الله تعالى. أي لو جلس أحد منعزلاً عن الآخرين وأخذ يردد "لا إله إلا الله"، أو "الله القدوس" أو العليم أو الخبير أو القادر أو الخالق؛ فما النفع الذي يُرجى من ورائه؟ لا شيء بالتأكيد، لذلك لا حاجة إلى القيام به. ولما كان أفراد جماعتنا أيضًا يدرسون الثقافة الإنجليزية لذلك فإنهم أيضًا تأثروا بمثل هذه الأفكار. وهناك قسم كبير آخر من جماعتنا ينتمي إلى الفلاحين والمزارعين الذين لم يكونوا يعلمون قبل دخولهم في الأحمدية ما هو الذكر الإلهي، وما هي منافعه، فلا يستطيعون التركيز على الموضوع ما لم نثقّفهم به ونفهّمهم إياه بأساليب مناسبة تفهيمًا جيدًا. ويقلّ فيهم ذكر الله بسبب عدم فهمهم أهمية الموضوع.

إن الصلاة أيضًا ذكر الله تعالى، وأحمد الله تعالى أن أفراد جماعتنا يواظبون عليها بفضل الله مواظبة تامة. لكن الصلاة ليست الذكر كلّه، بل هناك أنواع أخرى أيضًا لذكر الله تعالى لا بد من المداومة عليها أيضًا، لا أستطيع القول عنها أن جماعتنا لا تقوم بها غير أنه لا

بد من القول بأن الاهتمام بها قليل، وبعض الناس لا يؤدونها مطلقًا مما يحدث نقصًا كبيرًا. لاحظوا، لو كان امرؤٌ جميلَ المظهر إلا أن به تشوّهًا في العين أو الأذن أو الأنف فلن يسمى جميلاً بل سيرميه الجميع بالقبح والدمامة. هكذا فإن بعض أفراد جماعتنا لا يقومون ببعض أنواع ذكر الله تعالى ومثلهم كمثل شخص يلبس لباسًا ثمينًا مكونًا من سترة وقميص وصدرية وسروال، ولا يلبس حذاء أو لا يرتدي عمامة. فمع أن لباسه كله جميل ولكن يظل هناك نقص فيه بسبب غياب الحذاء أو العمامة، وتأبى نفوس العظماء أن يعتري النقصُ أيَّ أمر من أمورهم. وعليه فعدم العمل بجميع طرق ذكر الله نقصٌ وعيبٌ، كما سنثبت أن الله تعالى حثّنا – إلى جانب الصلاة – على ذكر الله تعالى بطرق أخرى سواء فهمنا الحكمة منها أم لا، كما أكد عليه النبي الكريم ﷺ أيضًا. فلا بد من الأخذ بمجموع هذه الطرق من أجل إحراز الكمال الروحاني.

وهناك سبب آخر وراء عدم الاهتمام الكافي بأداء النوافل لدى أفراد جماعتنا وهو أنهم لم يفهموا بعدُ فوائد هذا النوع من ذكر الله إذ يظنون بأداء الفرائض أنهم أدوا واجبهم، في حين أن النبي الكريم ﷺ يقول، بل يقول بأن الله تعالى قال لي:

وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أحبَّهُ، فَإِذا أحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا. (البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع)

وبهذا يمكنكم أن تدركوا أن الله تعالى قد أعطى للنوافل درجة عظيمة ووعد بالمكانة السامية للمواظِب عليها، إذ إنه يرتفع العبد بالنوافل إلى درجة يتصِّف فيها بصفاته عز وجل. فليست النوافل بشيء عادي، ولكن الأسف أن كثيرًا من الناس لا يهتمون بها كما يجب. والسبب الحقيقي في ذلك أن الإنسان مطبوع على الضعف والكسل لذلك فإنه يريد أن يقوم بأقل ما يمكن من الرياضة. ولأجل ذلك فإن الله تعالى العليم بضعف الإنسان والرحيم بعباده قد أمرهم بأداء بعض الفرائض وحثّهم على بعض النوافل أيضًا، وذلك لأنه إذا قام العبد بأداء الفرائض نجا من المؤاخذة لِما جاء في الحديث أن رجلًا جاء النبي ﷺ وسأله عن الإسلام:

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ فَقَالَ هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا قَالَ لَا إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصِيَامُ رَمَضَانَ قَالَ هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ قَالَ لَا إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ قَالَ وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزَّكَاةَ قَالَ هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا قَالَ لَا إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ قَالَ فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ وَاللَّهِ لَا

أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ. (البخاري، كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام)

ويتضح من هذا الحديث أن مَن أدَّى الفرائض بصورة كاملة أحرز النجاح، ولكن الإنسان الحاذق وبعيد النظر لا يكتفي بالفرائض فحسب بل يحرص على أداء النوافل أيضًا، وذلك لكي يتدارك بها النقص المحتمل والحاصل في أدائه للفرائض. فمثلًا، فُرِضتْ علينا خمس صلواتٍ كل يوم، فيجب أن يعلم مَن يقتصر على أداء هذه الصلوات ولا يقوم بالنوافل أنه قد لا ترتقي إحدى صلواته إلى درجة القبول بسبب خطأ ما حصل منه أثناء أدائها، فلا بد أن يذوق وبال أمره هذا يوم القيامة. فقد ورد في حديث آخر أَنَّه بينما كان رَسُولَ اللهِ ﷺ في الْمَسْجد إذ دَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى، فقال له النبي ﷺ: ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ. فَرَجَعَ يُصَلِّي كَمَا صَلَّى، فقال النبي ﷺ: ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ ثَلَاثًا، فلما كانت المرة الرابعة قَالَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أُحْسِنُ غَيْرَهُ فَعَلِّمْنِي فَقَالَ: لقد أسرعت كثيرًا في أداء الصلاة فلم تُقبَل صلاتُك، فعليك بالتمهّل والطمأنينة. (انظر البخاري، كتاب صفة الصلاة باب وجوب القراءة للإمام والمأموم)

فقد تحصل مثل هذه النقائص في الصلاة بحيث لا ترتقي إلى درجة القبول. ولكن الذي يداوم على النوافل إلى جانب الفرائض ينتفع بها

إذا بقيت إحدى صلواته غير مقبولة إذ إن النوافل ستعوض النقص في فروض الصلاة. ومثله كمثل شخص يتقدم لامتحان يشترط للنجاح فيه أن يحرز خمسين علامةً، فلو أجاب على الأسئلة التي تعادل أجوبتها الصحيحة خمسين درجة وأعرض عن الباقية ثم تيقّن أنه سينجح فهو مخطئ، إذ يمكن أن تكون إجابته على أحد الأسئلة غير صائبة مما يؤدي إلى إخفاقه في إحراز خمسين درجة فيرسب. فلا يفعل الطالب الحاذق والذكي هذا أبدا، بل يجيب على الأسئلة التي يعرف إجابتها كاملًا والتي لا يعرف إجابتها كاملًا، وذلك حتى ينجح في إحراز مجموع العلامات التي ينالها.

كذلك لو سافر امرؤٌ وقدّر نفقةً يحتاج إليها خلال هذا السفر، ثم أخذ معه ذلك القدر فحسب، فقد يحدث أحيانًا أن يخطئ تقديرُه فيتعرض لمشقة كبيرة، لذلك فإن الحذّاق والحكماء من الناس يحملون معهم شيئًا يسيرًا زائدًا على نفقاتهم المتوقعة حتى لا يتعرضوا لمشكلة عند النفقات الطارئة. وعليه فإن النوافل هي الرصيد الاحتياطي الذي يحمله المسافر من أجل النفقات الطارئة.

باختصار، إن النوافل لا بد منها، لذلك ينبغي الاهتمام الخاص بأدائها.

والسبب الثاني في عدم الاهتمام الكافي لأفراد جماعتنا بالذكر الإلهي هو كتابات المسيح الموعود عليه السلام ردًّا على المتصوفة المعاصرين الذين طالما نشروا البدعات، حيث قال لهم حضرته عليه السلام بأنه لن تجديكم نفعًا هذه الأوراد التي ترددونها كالببغاء. الإسلامُ مهاجَمٌ اليوم من كل الأطراف، فماذا تفعلون جالسين على السجاجيد؟ لماذا لا تنهضون وتردّون هذه الهجمات. وهكذا ذمّهم المسيح الموعود عليه السلام، وفي واقع الأمر كانوا جديرين بهذا الذم على تصرفاتهم. ولكن أخطأ البعض عندما فهموا من هنا عدم جواز الجلوس لذكر الله تعالى، في حين أنه ليس لغوًا، بل الغرض منه هو تقديس الله تعالى وتحميده، ولكن زجَرَهم المسيح الموعود عليه السلام لأنهم كانوا يذكرون الله تعالى جالسين في بيوتهم وما كانوا يحرّكون ساكنًا خارجها حيث كان يُساء إلى الله تعالى، ولأجل ذلك زجرهم المسيح الموعود عليه السلام وقال لهم بأنكم إذا كنتم في واقع الأمر تحبون الله تعالى وتقدِّسونه وتحمدونه فعليكم القيام بواجبكم خارج البيوت أيضا كما تفعلون داخلها. وبما أنهم بسبب كسلهم وتخاذلهم تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لذلك زجرهم حضرته عليه السلام ووبخهم، وأخبرهم أن عملهم هو النفاق بعينه، قائلا لهم أنْ لو كان في قلبكم حب صادق ولوعة حقيقية فَلِمَ لا تدفعكم إلى الخروج والدفاع عند شنّ المعارضين هجمات على ذات

الله تعالى؟ وما السبب في عدم تنــزيهكم لله في الأماكن العامة كما تفعلونه في الزوايا؟

طريق الذكر الإلهي عند المتصوفة المعاصرين

كان هناك سبب آخر لتوجيه الزجر إليهم وهو أن هؤلاء المتصوفة مثلهم كمن قيل فيه: "من اعتاد على داءِ أدمنه"، لقد ابتدعوا طريقة مشوهة لذكر الله لدرجة جعلوه شيئًا مغايرًا وتلاشت صورته التي قدّمها الإسلام. فما هو ذكر الله عندهم الآن؟ إنه ليس إلا رفع الصوت من القلب وإيصاله إلى أعلى مستوياته، بل يعمدون إلى الصياح بأصوات عالية تقضُّ مضاجع أهل حيِّهم، ويشوِّشون على المصلين المتعبدين من جيراهم. وهذا ما يسمّونه الضرب على القلب. وكأن القلب في نظرهم مكان لإقحام "لا إله إلا الله" فيه بالقوة. ولقد ابتدع فريق منهم أسلوبًا للذكر، منه أهم يعقدون مجالس الشعر والغناء ورقص العاهرات زاعمين إشعال مجلس ذكر الله بواسطة هذه الأمور. ثم يقومون بترويض القلب بحيث ينشأ منه صوت "الله الله". باختصار، قد ابتدعوا طرقًا عجيبة غريبة، فمرة يقومون بترويض القلب، وأخرى يقومون بضرب القلب، وتارة يحاولون استخراج الصوت من الروح، ولقد اخترعوا له أسماءِ من

عند أنفسهم، فمرة يقولون إنهم يرفعون الذكر من القلب فيعلو ويسجد عند العرش ثم يعود، وتارة يقولون بإمكاننا ترويض كل عضو من أعضاء الجسم حتى يردد اسم الله، فلقد ابتدعوا هذه وغيرها من الأمور. وبعضهم يتلون آيات قرآنية وهم يرقصون، وبعضهم يعقدون مجلسًا يتلو فيه أحدهم أبياتًا شعرية والآخرون يرقصون ثم يقولون لقد أغشي عليهم من الوجد، وبينما هم جلوس في هذا المجلس إذ يبدأون بالتقافز فجأة صائحين بأصوات عالية "الله الله". وهكذا فقد اخترعوا أذكارًا مبتدعة أخرى لا تمت إلى الإسلام بصلة، ولكن لا يمكن أن يقال أن الذكر الإلهي شيء سيئ، بل ينبغي أن يقال أنها بدعات استحدثوها، وهي أيضا بدعات مكروهة. إلا أنهم لا يكترثون لذلك في حين أن النبي الكريم ﷺ قال: كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار (النسائي، كتاب صلاة العيدين، باب كيف الخطبة للعيدين). وعليه فإن أذكارهم المبتدعة ليست بالتي تقرِّب إلى الله بل تُبعد عنه. والحق أن المسلمين أخذوا يبتعدون عن الله تعالى منذ أن عُرفتْ فيهم هذه الأنواع من الأذكار. وبما أن كل هذه الأمور بدعات ومخالفة لأوامر الله وسنة نبيه ﷺ، وحيث إن العمل بخلاف أوامر الله وسنة نبيه يؤدي إلى إضعاف الروحانية، لذلك فإنه السبب في فقدان الروحانية في المسلمين في الوقت الحالي.

والأمر الثاني هو أن هذه البدعات تتميز بشيء خاص يشعرون بسببه باللذة والسرور بصورة ظاهرية ولكنهما زائفان، ومن يعرض عن اللذة الحقيقة ويلهث وراء اللذة المصطنعة والزائفة فلا بد أن يلقى الهلاك والدمار. ومثلهم في ذلك كمثل رجل يؤلمه بطنه ولكنه بدلًا من أن يعالجه يتناول الأفيون وينام. لا شك أن ألمه سيهدأ مؤقتًا بسبب غيابه عن الوعي ولكنه في الحقيقة يسير تجاه الموت وسيأتي وقت يؤدي به ألمه هذا إلى الهلاك.

الحقيقة أن ما يسميه هؤلاء ذكرًا إنما هو علم من العلوم يقال له "علم الترب" وبالإنجليزية (Mesmerism) أي المسمرية. كما أن هناك علما آخر من هذا النوع وقد اكتشفه طبيب فرنسي ويسمى (Hypnotism) أي التنويم المغناطيسي، ولا علاقة له بالروحانية بل هو يتعلق بالفكر والخيال. ولقد أودع الله تعالى فكر الإنسان قوة بحيث إذا وُجه بشكل مركّز إلى جهة معينة اكتسب تأثيرًا خاصًا، وبواسطته يمكن توليد اللذة والسرور في القلب. ولكن هذه اللذة تشبه اللذة التي يولدها تعاطي الأفيون أو الكوكايين أو القنّب، فلا تكون هذه اللذة حقيقية، بل هي حالة من الغشي الضار بصحة الإنسان. كذلك عندما يُلقى تأثير على الأعصاب من خلال تركيز الدماغ تطرأ حالة من النعاس التي تُشعر صاحبها باللذة، ويحسب

هؤلاء المتصوفة أنها لذةُ ترديدهم "الله الله" في حين أنهم لو ردّدوا اسم إله الهندوس قائلين "رام رام" فسيشعرون باللذة نفسها.

يروى أن أحد الصلحاء كان متجهًا إلى مكان ما راكبًا السفينة فبدأ يذكر الله تعالى بصوت عال جدًّا لدرجة أن ركاب السفينة الهندوس أيضًا أخذوا يرددون: الله الله. وكان من بينهم زاهد هندوسي ظلّ صامتًا دون أن يجريَ على لسانه اسم الله. فانتبه إليه الرجل الصالح وخلال ذلك أخذ الهندوسي يلقي عليه تأثيره الخاص، وبعد قليل انفجر الرجل الصالح بترديد كلمة "رام رام" لأن الهندوسي فاق عليه في إلقاء التأثير فأصبح يردد كلمة "رام رام"، فاندهش الرجل لما حصل وتاب فورًا عن مثل هذه الأذكار لأنه عرف أن عمله ذلك نوعٌ من العلم ولا علاقة له بتأثير الذكر، إذ لو كان تأثيرُ ترديدِ كلمة "الله" يَظهر في صورة جريانها تلقائيًا على لسان الآخرين لما جرت كلمة "رام رام" على لسانه هو. ومثلهم كمثل رجل يسير في غابة وقد أخذ الجوع منه كل مأخذ فوجد صرة فظنّها مملوءة بالحبوب في حين أنها كانت مليئة بالأحجار. هذه هي حالة من يسلك طرقهم ويظن أنه ينال قرب الله تعالى رويدًا رويدًا، والحقيقة أنه ينتشي بنشوة كاذبة فيظن أنه قد بلغ مقامًا معينًا

في القرب من الله، ولكن الحقيقة أن قلبه يظل نجسًا كما كان سابقًا. وتلك تشبه النشوة الناتجة عن تعاطي الأفيون.

كان أحد المخلصين في الجماعة يقول لي إنه يستمتع بهذا الطريق، وكنت دائمًا أقول له بأن هذه اللذة تشبه لذة تعاطي الأفيون أو الكوكايين والدليل على ذلك أن هذه الأذكار لا تؤدي إلى الصفاء الروحاني، ولا يتحلى بالصفاء الروحاني مَن يدّعون أن ذكرهم يصل إلى العرش. فقال: كلامك صحيح، لأن شخصًا منهم كان يدّعي بأنه تخطى جميع درجات الروحانية ولكنه كان يستجدي الناس الغلال والمال، وكنت دائمًا أفكر في حالته وأتساءل: إذا كان قد بلغ أعلى مقامات الروحانية فلماذا يمد أمام الناس يد المسألة؟

قصة شيخ صوفي طماع

كان المسيح الموعود عليه السلام يروي قصة شخص ظنَّ أنه بلغ درجات روحية معينة. ذهب هذا الشخص إلى أحد مريديه وسأله الصدقة المعتادة منه. اعتذر التلميذ عن دفع شيء بسبب القحط الذي كان يعانيه. ولكن هذا الشيخ ظلّ يلحُّ عليه ويتشاجر معه حتى اضطره في نهاية المطاف إلى بيع بعض ممتلكاته، ولم يترك داره حتى نال منه مالاً.

فتُلاحَظ مثل هذه الأرجاس ونقاطُ الضعف عند من يقوم بالدعاوى الكبيرة في هذا المجال.

والواقع أن الله تعالى قد أودع صوت الإنسان وأفكاره تأثيرًا معينًا، فمن يدأب على التفكير في أمر ما تُنقش في مخيّلته صورة مشابهة لما يفكر به، كذلك من يعتدْ التفكير في أن قلبه يردّد اسم الله يأتِ عليه زمان يتوهم فيه سماع مثل هذا الصوت وكأن قلبه يردّد ذلك، ولكن لو كان ذلك الصوت من قلبه حقا فلماذا لا يصفو ويتطهر؟ ثم إن هؤلاء الذين يستنطقون قلوبهم بل قلوب الآخرين أيضًا يكثرون في الهندوس بأعداد كبيرة مقارنة مع المسلمين.

وأريد أن أؤلف حول هذا الموضوع كتابًا أوضح فيه الفرق بين الأنبياء والمشعوذين. إن استنطاق القلب علم مألوف وعادي ولكنه يؤدي إلى نتائج كارثية، إذ يغفل الإنسان عن إصلاح نفسه فيتوهّم أنه قد وصل إلى الله، بينما لا يكون الأمر كذلك. فلو أراد امرؤ أن يبلغ مكانًا ما، ثم بلغ غيره ولكنه ظن أنه قد بلغ غايته، فلا بد أنه سيمكث فيه وبالتالي سيتعرض لخسائر فادحة. هذه هي حالة ممارسي هذه الأعمال، بحيث يظنون خطأً أنهم بلغوا غايتهم المنشودة، في حين أنهم يكونون بعيدين عنها كل البعد، فإن حالتهم تشبه حالة النشوة الناتجة عن تعاطي الأفيون.

ليس هذا النوع من الذكر إلا من قبيل اللغو الذي حذّرنا منه المسيح الموعود ؑ، وذمّ فاعليه، وأنى له أن يسمّى بالذكر الإلهي ما دام الهندوس والمسيحيون أيضًا يستطيعون القيام به؟

أما فيما يتعلق بالذكر بصوت مرتفع أو الاستماع لبعض الألحان المعيّنة فقد سبق أن أخبرتكم أن أعصاب الإنسان أودعتْ قوة خاصة للتأثر والتأثير، وإحدى النوافذ التي تتأثر الأعصاب من خلالها هي الأذن، لا سيما تلك التي تتأثر بصوت جميل. ليس الإنسان هو الوحيد الذي يتأثر بالصوت الجميل بل الحيوان أيضًا، فمثلاً إذا عزفنا على الناي أمام الأفعى أخذتْ بالتلوّي، ولكن هل يعني ذلك أنها خضعت لتأثير روحاني خاص؟ كلا. كذلك لو شرع أحد يرقص لدى سماعه الأغاني فلا يمكن أن يقال عنه إنه في وجد روحاني، بل يمكن أن يقال بأن مشاعره قد خضعت لتأثير ما، ولكن هذا التأثير لا يمتّ إلى الروحانية بصلة. فلو كان أحد يظن أن الأغاني والألحان تبعث على الروحانية فهو مخطئ بل إنه يدل على جهله، لأن تمايل الأفعى لدى سماعها عزف الناي يشبه تمايل المتصوفين المعاصرين على الألحان والأغاني. كما أن رفع الصوت كثيرًا عند الذكر أمر مبتدع.

كان رَسُولِ اللهِ ﷺ سائرًا مع بعض أصحابه وإذا بهم رفعوا صوتهم بكلمة الله أكبر الله أكبر، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ

لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ. (البخاري، كتاب الجهاد، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير). ولكن انظروا إلى المتصوفين المعاصرين اليوم فإنهم لو عقدوا مجلس الذكر في حيٍّ ما لامتلأ ضجيجًا وصراخًا. فإنهم هكذا يخالفون الشريعة ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

إضافة إلى ذلك لم يثبت من سيرة الرسول ﷺ سماع الأبيات الشعرية ودق المزامير، أو الرقص والتمايل عند تلاوة الذكر ورفع الصوت والصراخ والسقوط على الأرض وتحريك الرأس بصورة معينة وغيرها عند ذكر الله. لقد روي أن النبي الكريم ﷺ قد استمع أحيانًا للشعر، ولكن لا يثبت أنه كان يستمع له على سبيل ذكر الله، بل كان سماعه الشعر على هذا النحو بأنه إذا جاءه حسان بن ثابت رضي الله عنه وقال له بأن فلانًا من الكفار قد هجاك في شعره فنظمتُ قصيدة ردًّا عليه، فكان ﷺ يستمع إلى هذه الأبيات، كما ورد في الروايات أن النبي ﷺ قد أمر بقتل رجل[3] فاستأذن النبي ﷺ وقرأ عليه أبياته الشعرية طالبًا فيها العفو عنه؛ فقال فيها بأنني لما أردت المجيء إلى

[3] هذه إشارة إلى قصة كعب بن زهير بن أبي سُلمى، وهو شاعر كبير ابن شاعر عظيم من أصحاب المعلقات. وقد ألقى قصيدته الشهيرة بالبردة أمام النبي ﷺ والتي مطلعها: بانت سعادُ فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يُفد مكبولُ (المترجم)

النبي ﷺ قال لي الناس أن النبي ﷺ قد أصدر أمرًا بقتلك فلا تذهب إليه وإلا ستُقتَل، ولكنني لم أصدقهم، وتساءلت: هل سأقتَل بعد حضوري عنده وطلبي العفو منه؟ فلما سمع النبي ﷺ ذلك ألقى عليه بُردته لئلا يقتله أحد. ثم قال هذا الشخص: لم أطلب العفو عني لأنني كنت أخاف من قتلي، بل كنت أخاف من قتلي في حالة الكفر، وذلك لأنني أدركت أن الإسلام هو الدين الحق. باختصار، كان النبي ﷺ يستمع لمثل هذه الأبيات، ولكن من أين يثبت أن الأغاني كانت تنشد أمامه ﷺ أو تُتلى عليه أشعار المحبة الإلهية فيرقص الصحابة لدى سماعها حتى يغشى عليهم.

على أية حال، فإن كل ما يُمارَس اليوم باسم ذكر الله لهو مبتَدعٌ وهو منتشر عمومًا.

إضافة إلى ذلك كان النبي الكريم ﷺ يستمع لنوع آخر من الشعر عندما يشتد وطيس الحرب، فيهتف أمامه أحد الصحابة قبل المعركة بأبيات حماسية بأننا سننتصر اليوم أو نضحي بأنفسنا ولكن لن نرجع القهقرى.

فمن يقول بأننا نستمع لمثل هذه الأذكار لأن النبي الكريم ﷺ كان يستمع للشعر، فقوله باطل وسخيف، وتأبى الشريعة الأفاعيل

التي يقومون بها لدى سماعهم تلك الأبيات، ولا أصل لها في الإسلام.

الحالات الخمس للذكر الإلهي

والصحيح هو على عكس أفعالهم فـــــلا يثبت مما ورد في القرآن الكريم من أحوال الذكر الإلهي أنه تغشى الإنسان أثناء الذكر الإلهي حالة يفقد فيها وعيه أو تدفع هذه الحالةُ السامعَ إلى تحريك الرأس بقوة والقفز. بل يقول الله تعالى عن الذكر الإلهي:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الأَنْفال: ٣)

ويقول تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٤)

ويقول تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (مريم: ٥٩)

إذن هذه هي الحالات التي تنتاب المداومين على ذكر الله:

١) توجل قلوب المؤمنين عند ذكر الله وتتولّد فيها الخشية، وذلك لأنهم يوقنون أن ربهم عظيم وذو المجد والجلال.

٢) تطرأ عليهم حالة القشعريرة، وهي أن تنتصب شعورهم خوفًا ووجلاً.

٣) تلين جلودهم وقلوبهم.

٤) يخرّون سجّدًا، أي ينشغلون في عبادة الله تعالى.

٥) يبدأون بالبكاء.

هذه هي الحالات الخمس التي ذكرها الله تعالى. فلو كانت تنتابهم حالة الرقص والقفز والإغماء والصياح لذكرها الله تعالى أيضًا، ولقال تعالى: إن المؤمنين إذا ذُكِر اللهُ أمامهم يمزقون ثيابهم ويرمونها جانبًا، ويبدأون بالتقافز والصياح، ويتعلقون بالأشجار رأسًا على عقب فيحركون رؤوسهم وجْدًا، أو يخضعون لحالة الرقص والطرب. كلا، لم يذكر الله تعالى شيئًا من هذه الحالات مما يدل على أنه لا علاقة لها بالذكر الإلهي.

ما أحكم كلام الله الذي نفى فيه كل هذه الأفاعيل قبل ابتداعها!

ولربَّ قائلٍ يقول: يمكن أن تضاف هذه الحالات إلى الحالات المذكورة في القرآن الكريم وإن لم يذكرها.

فأولًا هذا القول ينم عن الجهل، ثانيًا إذا استعرضنا تلك الآيات القرآنية التي ذكر الله فيها حالات الذكر الإلهي علمنا أنه قد أودع تلك الآيات كلماتٍ تكفل الرد على كل هذه الأمور التي يحسبها

أصحابها جائزة ويروجون لها. فإنها احتوت على كلمات: وجل، اقشعرار، تلين، جلود. ومعنى الوجل في اللغة العربية اللين واللطافة وهو يدل على الهدوء والسكون، ولكن على عكس ذلك يركِّز متصوفة اليوم على التحرك الذي هو خلاف الهدوء. والاقشعرار هو انتصاب الشعر فجأة خوفًا وهو أيضًا يدل على السكون لأن الإنسان بسبب الخوف الفجائي يقف حيث يكون ولا يتحرك. كما أن ﴿تلين جلودهم﴾ أيضًا تدل على السكون. أما الحركة فتستخدم لها كلمة الطرب للدلالة على القفز فرحًا، ولم يرد هذا اللفظ في القرآن الكريم عند الذكر الإلهي. ويقول أهل اللغة أن الطرب خلاف الخشوع والخضوع بينما يقول القرآن الكريم إن ذكر الله يؤدي إلى الخشوع والخضوع. فاتضح أن لفظ الطرب ينافي ذكر الله لأنه يستخدم لحالة معاكسة للخشوع والخضوع، فلا يمكن أن ينتج ذكر الله عن الطرب، أي الرقص والقفز، وإنما ينتج عن الخشوع والبكاء والتعبد والخشية، وذلك لأن الإسلام دينٌ يقيم العقل والوعي ويهديه إلى الصراط المستقيم وليس بدين يُذهب الصواب ويفقد الشعور، أما الطرب والقفز والصياح فليس إلا نتيجة فقدان الوعي وقلة العقل، فلا يمكن أن يكون ذلك من تعليم الإسلام. ومن المكروه أن تطرأ على الإنسان حالة الإغماء وفقدان الصواب، لأجل

ذلك أجاز الإسلام البكاء عند موت الأعزاء والأحباء ولم يبح الصراخ والعويل لدرجة الإغماء. مرّ النبي ﷺ بامرأة تندب فقيدها على الشاكلة المذكورة واقفةً عند قبره فأوصاها بالصبر فقالت: لو فقدتَ ولدًا لعرفتَ كيف يكون الصبر. (انظر: أبو داود، كتاب الجنائز، باب الصبر عند الصدمة) ولقد قالت ذلك جهلًا منها وإلا فقد توفي للنبي ﷺ عدد من الأولاد.

باختصار، إن الصياح والإغماء هو نتيجةٌ لفقدان الصبر واليأس وضعف القلب. وإن كان ناجمًا عن ضعف القلب فليس بشيء حسن أيضا. يُروى أن أحد الصالحين في زمن الجنيد البغدادي رحمه الله كان يسقط مغشيًّا عليه كلما سمع ذكر الله، فلما سأله عن ذلك تلامذتُه أجاب: يحدث ذلك معي لشيخوختي وضعفي. لاحظوا لم يقل هذا الصالح بأنني قد بلغت الآن مقامًا رفيعًا في الروحانية لذلك أفقد الوعي بل نسب ذلك إلى حالة الشيخوخة والضعف.

وإذا كانت حالة الإغماء ناجمة عن اليأس فيقول الله تعالى عن ذلك: ﴿وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٨) فمن يفقد الوعي بسبب اليأس فإنه يَكفر وفق الآية المذكورة، وإن كانت تحصل له هذه الحالة نتيجة

ضعف القلب فإنه مريض، وليس من الحكمة قط تقليد حالته، بل هو ينافي العقل.

لقد نوقشت هذه القضية زمن الصحابة رضي الله عنهم أيضًا، فقد سأل عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أسماء رضي الله عنها عن الإغماء وفقدان الوعي فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ثم ذكر عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدتي أسماء: رأيت أناسًا إذا سمع أحدهم القرآن خرّ مغشيّاً عليه! قالت أسماء التي كانت بنت أبي بكر رضي الله عنه: إذا رأيت مثل ذلك فاعلم أنه عمل شيطاني.

يحكى أن ابن سيرين - صاحب كتاب تأويل الأحلام الذي كان صهر أبي هريرة - علِم عن شخص يُغشى عليه كلما سمع آية من آيات القرآن الكريم. فقال: لن أُسلِّم بهذا الأمر إلا إذا أجلستموه على جِدارٍ، ثم إذا قرأتم عليه القُرآن كله بدلاً من آية واحدة فأغشي عليه وسَقَط من الجِدَار فهو صادق.

ونرى في عصرنا أيضًا أن من يفقدون وعيَهم خلال حلقات الذكر فيغشى عليهم فإنهم لا يسقطون إلا في المكان الذي يجلس فيه الناس مجتمعين وذلك حتى لا يصابوا بأي أذى عند السقوط، فلم يحدث قط أن سقط أحدهم من سطح البيت أو في مكان يخشى فيه إصابته بالجروح البالغة، اللهم إلا إذا حصل ذلك خطأً.

إنها أمور ممنوعة ومحرمة

باختصار، هذه الأنواع كلها ممنوعة ومحرمة، وجديرة بأن نذمّها ذمًا شديدًا، لأنها تقضي على الروحانية وتجعل فاعلها أشبه بالقرود والدببة، بينما جاء الإسلام ليحول الإنسان إلى الملائكة، ولكن باتباع هذه الطرق المذكورة يتحوّل الناس إلى قرود. فإن هذه الأمور من قبيل اللغو والسخافة، ولا يرجى من ورائها أية فائدة تذكر.

الذكر الإلهي وطرقه الأربع

إن الذكر الإلهي الحقيقي الذي أمرنا به الله تعالى في القرآن الكريم وأكد عليه إنما هو شيء آخر وهو على أنواع أربعة، وإنّ تركَها يوجب الحرمان من الثواب العظيم لذلك ينبغي التمسك بها وعدم التخلّي عنها.

١. الصلاة

٢. تلاوة القرآن الكريم

٣. ذكر صفات الله مرارًا وتكرارًا والإقرار بها وذكر تفاصيلها باللسان.

٤. ترديد صفات الله علانية بين الناس إضافة إلى ترديدها سرًا على انفراد.

هذه هي الطرق الأربع الثابتة من القرآن الكريم، والعمل بها ضروري من أجل الروحانية بل هي من مستلزمات العروج الروحاني.

والآن أقدم لكم أدلةً على أن القرآن الكريم قد قدّم هذه الأنواع من الذكر الإلهي. فقال الله تعالى عن الصلاة: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه: ١٥)

ويتضح من هذه الآية أن الله تعالى حيثما قال: يا أيها المؤمنون اذكروني، فأحد معانيه: يا أيها المؤمنون أقيموا الصلاة. ثم يقول تعالى بعد تأكيده على إقامة الصلاة: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُون﴾ (البقرة: ٢٤٠). لقد وصفت الصلاة في هذه الآية بذكر الله، وهناك آيات أخرى تتناول الموضوع نفسه إلا أنني أكتفي الآن بما ذكرت.

والطريق الثاني للذكر هو تلاوة القرآن الكريم. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ١٠)، فلقد وُصف تنـــزيل القرآن الكريم هنا بتنـــزيل الذكر. وعرفنا من هنا أن الله تعالى حيثما أمرنا بقوله: ﴿اذكروا الله﴾ فأحد معانيه اتلوا القرآن.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٥١) وهنا أيضًا يقدم الله القرآنَ الكريم ويقول عنه بأننا أنزلنا لكم هذا الذكر، ومع كل ذلك أنتم له منكرون؟

والطريق الثالث لذكر الله هو ترديد الصفات الإلهية والإقرار بها. وأقدّم لكم أدلة من القرآن الكريم لإثبات هذا الأمر. يظن البعض أن الصفات الإلهية التي يردّدها المؤمن أثناء صلاته تكفيه لذكر الله. وهذا الظن خاطئ لأن هناك طرقًا وأنواعًا أخرى للذكر الإلهي غير الصلاة، ويثبت ذلك من القرآن الكريم. يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ (النساء: ١٠٤). يتضح من هذه الآية أن هذا النوع من الذكر منفصل عن الصلاة. لأنه لو كان يكفي ترديد صفات الله تعالى في الصلاة لما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾. ثم قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (النور: ٣٨)؛ يقول الله تعالى في هذه الآية أن أصحابَ محمد ﷺ لا يمنعهم البيعُ والشراءُ عن ذكر الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وذلك لأنهم يخافون ذلك اليوم الذي تتقلّب فيه القلوب الأبصار. وهنا أيضًا ورد نوع آخر من ذكر الله غير الصلاة.

والطريق الرابع للذكر الإلهي هو بيان صفات الله تعالى على رؤوس الأشهاد، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (المدثر ٢-٨). لقد أُمر النبي ﷺ في هذه الآيات أن يقوم فينذر الناس جميعًا، ويكبّر ربّه تكبيرًا. ويتضح من هنا أنه ينبغي بيان عظمة الله تعالى وتكبيره أمام الناس أيضًا.

هذه هي أنواع الذكر التي حثّنا الله تعالى عليها.

نوعان آخران من الذكر

ويبقى الآن السؤال: ما هي الأساليب الصحيحة للقيام بأنواع الذكر المذكورة؟ ينبغي أن لا يغيب عن البال أن هذه الأذكار قسمان: أحدهما الفروض، والآخر النوافل. أما الفرض فلا حاجة إلى الحديث عنه هنا، لأن أفراد جماعتنا يؤدون الفروض بفضل الله. وأما النوافل فهناك حاجة ماسة إلى الحديث والإخبار عنها، ولكن بما أن هذا الموضوع طويل وواسع لذلك قبل التطرُّق إليه أخبركم عن طريقة تلاوة القرآن الكريم.

اعلموا أنه على المؤمن أن يحدّد مقدارًا معيّنا من القرآن الكريم للتلاوة ويعزم على تلاوته يوميًا، وعليه أن يداوم على القدر الذي

عزم على تلاوته يوميًا وألا يتكاسل في ذلك بحيث يتلو يومًا ويترك آخر ويتلو قدرًا معينًا يومًا وآخر أقل منه. فالمواظبة وتحديد قدر معين للتلاوة شرطان أساسيان، ولا فائدة حقيقية تُرجى من التلاوة دون المواظبة كأنْ يتلو أحيانًا ويترك أخرى. فلا بد من تحديد قدر للتلاوة وإكماله يوميًا والمواظبة عليه وعدم التقصير في إكماله سواء كان ذلك جزءًا أو نصفه أو جزأين أو ثلاثة أو أربعة. روي عن الرسول الكريم ﷺ أنه قال: إِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ. (البخاري، كتاب الرقاق) لأنه يتضّح من تصرُّف الذي يداوم يومًا ويترك يومًا أنه لا يجد في قلبه رغبة؛ ولا يصفو القلب دون المحبة القلبية والشوق العارم.

لقد جربت بنفسي أنني إذا انشغلت عن تلاوة القرآن الكريم يومًا في تأليف كتابٍ ما أو لسبب آخر يحزّ ذلك في نفسي وأشعر بتأثيره في عباداتي الأخرى.[٤]

[4] كان حضرته قد وصل إلى هنا في خطابه وإذا بأحد الحضور يطرح عليه السؤال التالي: هل ينبغي تلاوة القرآن الكريم يوم الجمعة أيضًا، وإذا كان ينبغي تلاوته يوم الجمعة أيضًا فلماذا لا يُعقد الدرس يوم الجمعة؟ (في يوم الجمعة لم يكن يلقى الدرس بعد الفجر في قاديان آنذاك).

قال حضرته ردًّا عليه: يجب تلاوة القرآن الكريم يوم الجمعة أيضًا، أما الدرس فبما أنه نوع من التعليم ويوم الجمعة يوم عطلة للمسلمين لذلك تُترك الأعمال التعليمية

فأولا: ينبغي تلاوة القرآن الكريم يوميًا.

ثانيًا: أن يراعي المؤمن التمهّل والفهم عند التلاوة وألا يسرع في ذلك بحيث لا يدرك من معاني الآيات القرآنية شيئًا. لذلك ينبغي أن يرتّل القرآن ترتيلاً وذلك حتى يفهم المعاني ويراعي آداب القرآن الكريم أيضًا.

ثالثًا: وليتوضأ المؤمن قدر المستطاع قبل تلاوة القرآن الكريم، وإن كانت جائزة عندي بلا وضوء أيضًا إلا أن بعض العلماء عدّوا التلاوة بلا وضوء مكروهةً. فلا أرى بعدم جوازها بدون وضوء ولكن مع كل ذلك من الأفضل والأنسب أن يتوضأ للاستزادة في الأجر والثواب.

سألني الآن أحد الإخوة: ماذا ينبغي على المرء فعله إذا لم يستطع فهم معاني الآيات القرآنية التي يتلوها؟

والجواب هو أنه على أمثال هؤلاء الناس تعلُّم ترجمة معاني ألفاظ القرآن الكريم. وإذا كان لا يستطيع تعلم معاني ألفاظ القرآن كلها

الأخرى، كما أن هناك عبادة إضافية فرضت في هذا اليوم وهي الخطبة التي تنوب عن درس القرآن الكريم. (الناشر)

فعلى الأقل يتعلم معاني جزء منه، ثم إذا تلا منزلاً[5] من القرآن الكريم قرأ شيئًا من هذا الجزء الذي يعرف معاني ألفاظه. وهنا يمكن لأحد أن يتساءل: ما فائدة تلاوة منزلٍ من القرآن الكريم ما دام لا يفهم معاني الكلمات؟ فيجب ألا يغيب عن البال أن الله تعالى يثيب على كل عمل يقوم به المرء بإخلاص النية وصدق القلب، وعليه فمن يتلو القرآن الكريم لله تعالى ولو لم يعرف معاني كلماته فإن الله تعالى سيجزيه عليه نظرًا إلى إخلاصه وحسن نيته. ثم إن للألفاظ أيضًا تأثيرا في النفس، والدليل على ذلك أن الرسول ﷺ أمرنا بالأذان في أذن المولود في حين أنه لا يدرك ولا يفهم شيئًا في ذلك الوقت إلا أنه لا بد أن يؤثِّر وفق المثل الفارسي القائل: "داشته آيد بكار" أي ما هو بحوزتك قد يفيدك يومًا.

طرق الأذكار الأخرى

إضافة إلى تلاوة القرآن الكريم هناك قسمان للأذكار الأخرى كالتسبيح والتحميد التي يعمد إليها الإنسان سرًّا وحده أو علانية في المجالس؛ قسم منها من الفروض، مثل ذكر اسم الله عند الذبح، لأن

[5] في بعض المناطق قسموا القرآن إلى ركوعات ومنازل تسهيلا للقراءة، فقد قسموه في سبعة منازل حتى يكمل القارئ تلاوة القرآن الكريم في غضون أسبوع. (المترجم)

تركه يؤدي إلى تحريم أكل الذبيحة، وقسم آخر من النوافل وهو ما يُتلى من أوراد في أوقات مختلفة، ولقد وسّع فيه النبي ﷺ كثيرًا حتى جعل لكل مناسبة ذكرًا خاصًا بها. فعلى سبيل المثال أمرنا بقراءة بسم الله الرحمن الرحيم عند الجلوس إلى مائدة الطعام. هذا لا يعني أن من لا يقرأ البسملة عند تناول الطعام فلا تمتلئ معدته، بل المراد منه أن الغرض الذي يتم تناول الطعام لأجله يتحقق كاملاً بهذا الطريق، أي هذا سيفيده في الروحانية فائدة عظيمة. كذلك أُمرنا بقراءة بسم الله الرحمن الرحيم عند بدء كل عمل ليتبارك، وعند قضائه أمرنا بقراءة: الحمد لله رب العالمين، وذلك حتى تكون فيه البركة. كذلك من لبس لباسًا جديدًا أو استخدم شيئًا جديدًا فليشكر الله تعالى عليه بقوله: الحمد لله. وعند كل ألم ومصيبة يجب أن يقرأ: إنا لله وإنا إليه راجعون. وإذا تعرّض لأمر يفوق طاقته وهمته فليقل: لا حول ولا قوة إلا بالله.

خلاصة القول، تتعلق هذه الأذكار بالأمور التي يتعرّض لها الإنسان يوميًا. فكل إنسان يكون في السراء أو الضراء يوميًا، وإن أصابته السراء والفرحة قال: الحمد لله رب العالمين، وإن أصابته الضراء والألم قال: إنا لله وإنا إليه راجعون. وقال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ (النساء: ١٠٤)، ولقد

أوصانا رسول الله ﷺ بقراءة أذكار معينة عند كل حالة، وبالالتزام بها يستطيع الإنسان أن يعيش حالةَ ذكرِ الله تعالى على الدوام. على سبيل المثال، إنْ سمع الموظف خبرًا سارًّا جالسًا في مكتبه قال: الحمد لله، وإذا تلقى هذه البشارة وهو يمشي قال: الحمد لله، وإذا تلقاه مضطجعًا قال: الحمد لله في هذه الحالة، وهكذا تلقائيًا يذكر الله ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾. ثم هناك رواية عن جابر عن النبي الكريم ﷺ: أفضل الذكر لا إله إلا الله. (الترمذي، أبواب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة)

وهناك فضائل شتى لأذكار أخرى أيضًا قال النبي ﷺ: كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ. (البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ونضع الموازين القسط، والترمذي، أبواب الدعوات، باب ما جاء في فضل التسبيح والتكبير...)

أي أن هناك كلمتين خفيفتين على اللسان ولكنهما ثقيلتان في الميزان إلى درجة أنْ ترجح كفة الأعمال الصالحة بسببهما، وإنهما حبيبتان جدًّا إلى الله تعالى. وهذا الذكر أيضًا من الأنواع العليا. في إحدى المرات قام المسيح الموعود عليه السلام لصلاة التهجد أثناء تعرُّضه لنوبة المرض الشديدة إلا أنه سقط مغشيًا عليه و لم يستطع أداء صلاة

التهجد فتلقى وحيًا أنه في هذه الحالة المرضية يكفيه أن يردد هاتين الكلمتين بدلاً من التهجد. وهذا الذكر أيضًا ذكر فضيل ورد في الروايات أن النبي ﷺ كان يكثر منه.

لقد وصف النبي ﷺ الذِكرَين المذكورَين بأنهما من أفضل الأذكار. وهناك ذِكرٌ آخر وهو أيضًا من أفضل الذكر، ومع أنه لا تؤكد على ذلك وصية محفوظة للنبي ﷺ ولكن يخبرنا العقل أنه أيضًا ذِكرٌ من الدرجة العليا ألا وهو ذكر الآيات القرآنية. لو تُليَتْ الآيات القرآنية ذِكرًا لله تعالى لنال المؤمن ثوابَين؛ أحدهما على التلاوة والآخر على الذكر.

إلى هنا سردت لكم أنواع الذكر، والآن أفصل في بعض الاحتياطات المتعلّقة بذكر الله.

الاحتياطات المتعلقة بالذكر الإلهي

أولًا: أوصانا النبي الكريم ﷺ ألا نُكثر من الذكر إلى حد الملل.

ثانيًا: ينبغي ألا يبدأ المؤمن بالذكر عندما يكون مشغول البال. فمثلًا لو جلس يذكر الله تعالى في وقت يريد فيه إنجاز عمل هام آخر فلن يتمكن من التركيز على الذكر، بل يؤدي ذلك إلى الحطّ من شأن كلام الله، وبالتالي يَأْثم الإنسان عليه.

فالاحتياط الأول هو ألا يطوّل المؤمن الذكر إلى درجة أنْ يصاب بالملل، والثاني ألا يبدأ ذكر الله تعالى حين يكون مشغول البال في أمر آخر، فيأثم بدلًا من أن يُثاب عليه. فعليه أن ينشغل بذكر الله عند تمكّنه من التركيز، ولو قلّتْ تلك الفترة. دخل النبي ﷺ بيته وكانت امرأة تتحدث مع السيدة عائشة رضي الله عنها، قال: من هذه؟ فأجابت عائشة أنها كانت تخبرني أنها تتعبد كثيرًا حتى أنها لا تنام. قال النبي ﷺ: إنها ليست مزية أنها تجهد نفسها في العبادة، لأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل. (مشكاة المصابيح، كتاب الإيمان، باب القصد في العمل)[6]. فإن الله تعالى لا يمل من كثرة العبادة بل العابد نفسه يملّ، فإذا أصابه الملل لم تعد عبادته نافعة، فمن تجاوز حدًّا تعرّض لمصيبة.

روي أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان رجلًا قويًّا إلى درجة أنه كان يقوم الليل ويصوم النهار ويكمل تلاوة القرآن الكريم كله في يوم واحد. فلما علم النبي ﷺ عن ذلك قال لا يجوز ذلك، بل

---

[6] نص الرواية المشار إليها كالتالي: عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدِي امْرَأَةٌ فَقَالَ مَنْ هَذِهِ فَقُلْتُ امْرَأَةٌ لَا تَنَامُ تُصَلِّي قَالَ عَلَيْكُمْ مِنْ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ. (مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها)- (المترجم)

ينبغي ألا تتجاوز عبادة المؤمن سدسَ الليل أو ثلثَه أو نصفَه على الأكثر. أما الصوم فأكثر ما ينبغي الدوام عليه أن يصوم يومًا ويفطر يومًا، وألا ينهي تلاوة القرآن الكريم كله في أقل من ثلاثة أيام (انظر: البخاري، كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم). لقد حاول عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه جاهدًا أن يسمح له النبي ﷺ بأكثر من ذلك إلا أنه لم يفعل ذلك. ثابر عبد الله بن عمرو بن العاص على هذه الأعمال، ولكنه لما كبر وشاخ لم يعد يقوى على المواظبة عليها مما جعله يتأسّف كثيرًا على أنه أقرّ أمام النبي ﷺ على المواظبة على هذه الأعمال إلا أنه الآن لم يعد يقوى عليها. فتجاوزُ الحد في كل شيء يوقع الإنسان في مشاكل كثيرة، فكما تجدون أن طبخة "بلاؤ"[7] لذيدة ومفيدة جدًّا ولكن الإكثار منها يسبب عسر الهضم؛ كذلك الإكثار المفرَط من الذكر يثقل على النفس ويؤدي إلى النفور منه.

فعلى المرء ألا يحمّل نفسه ما لا تستطيع، بل ينبغي أن يحاول ترويضَها على ذكر الله وعبادته بالتدريج.

ثالثًا: الاحتياط الثالث الذي ينبغي أن يراعيه المؤمن هو أن يجتهد لتوجيه النفس في ذكر الله، وإن كانت لا تتوجه إليه بدايةً، وعليه أن

[7] وهي أرز مع اللحم غالبًا. (المترجم)

يضغط على نفسه أنه لا بد أن يُكمل ما يريد من ذكر الله، ويصمّم أنه لن يرضخ لإرادة الشيطان مهما كان قويًا. لو ضغط الإنسان على نفسه بهذه الطريقة فسيسيطر على إقناعها وإخضاعها.

يروى أن "رائي تيكن" كان محاميًا فحْلاً ذائعَ الصيت، وفي إحدى القضايا ارتأى محامي الخصم أنه لا يستطيع أن يربح القضية بوجود "رائي تيكن"، فقال للقاضي أثناء الحديث بكل دهاء: يزعم "رائي تيكن" أنه يتمتّع بقوة خارقة للإقناع بحيث يكسب القضية مهما كان القاضي بارعًا. فتحفّز القاضي بسبب ما سمعه وعزم على أن يفنّد كل ما يرافع به "رائي تيكن". وعند المرافعة كلما قدّم "رائي تيكن" دليلاً من أدلته أخذ القاضي يفنّده ولم يقبل منه شيئًا حتى حكم لصالح محامي الخصم. إذًا، فعندما يعزم الإنسان على عدم الرضوخ لتأثير فلان فلن يسيطر عليه، لذلك فعلى الذاكر أن يتحلى بمثل هذه الإرادة ولا سيما في الحالة الابتدائية من الذكر الإلهي.

رابعًا: على المؤمن أن يكون في حالة مريحة عند انشغاله في ذكر الله، فمثلًا إذا جلس على فرش وتحته شيء يخزه ويزعجه فيجب أن يزيح ما يؤذيه أولًا ثم ينشغل بذكر الله.

خامسًا: على الذاكر أن يتحلى عند الذكر بحالةٍ يستعدّ فيها لتلقّي ما سيُعطى له نتيجة الذكر. والذي يذكر الله تعالى على هذه

الحالة ينتقل في حين من الأحيان إلى حالة الاستغراق وإن كان يعاني حالة التشتت عند بدايته الذكر.

سادسًا: ينبغي أن يذكر اللهَ بكل تضرع وخشية. فإذا لم يشعر بالخشوع فليتصنع حالة الخشوع لأن الأمور التي يدأب عليها الإنسان تكلُّفًا تتحول إلى الحقيقة رويدًا رويدًا. والذي يتصنّع التضرُّع ويجعل صورته أيضًا كالباكين تنشأ فيه حالة التضرع الحقيقي يومًا ما.

يروى أن بروفيسورًا كان في منتهى الرقة القلبية إلا أنه انقلب إلى أستاذ قاس وشديد، والسبب في ذلك أنه تضرّر يومًا بسبب رقّته ولطفه فعزم على أن يتحول إلى قاسٍ غليظ القلب، فأخذَ يُظهر على وجهه علائم الشدة والقسوة وإنْ بقي رقيق القلب من الداخل، فكان يبدو قاسيًا وجلفًا من مظهره الخارجي، فلما ظلّ على حالته هذه فترة طويلة أخذ قلبه أيضًا يقسو. لا شك أن ذلك البروفيسور انقلب إلى الحالة السيئة، ولكنكم إذا مارستم هذا الأسلوب للتحول إلى الحالة الحسنة وهي حالة التضرع والخشوع فلا بد أنها ستنشأ فيكم رويدًا رويدًا. وإذا تمتّعتم بحالة الخشوع لثانيةٍ واحدة يومًا فإنها ستزداد في اليوم التالي وهكذا دواليك. فلو بذلتم سعيكم على هذا النحو فسيتكللُ بالنجاح.

أنسب الأوقات للذكر الإلهي

والآن بعد أن ثبتت لنا ضرورة الذكر وأهميته كما شرحتُها من خلال قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ (النساء: ١٠٤)، فلا بد لنا أن نعرف الأوقات المناسبة للذكر الإلهي. لا شك أنه ينبغي أن نذكر الله تعالى كل حين وآن. فقد وردت رواية عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ. (الترمذي، أبواب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة)، ولكن الله تعالى قد ذكر بعض الأوقات الخاصة بذكر الله، وهي في قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الأحزاب: ٤٢-٤٣) البكرة والأصيل هما أمثل الأوقات لذكر الله تعالى.

فالبُكرة هي الفترة ما بين بزوغ الفجر وحتى طلوع الشمس. وعليه فمعنى الآية: اذكروا الله تعالى منذ صلاة الفجر إلى طلوع الشمس. والوقت الأنسب الثاني هو الأصيل وهو لغةً: فترة ما بين العصر وغروب الشمس. وهناك ثلاثة أوقات أخرى فُضلى لذكر الله تعالى وهي مذكورة في الآية التالية: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ (طه: ١٣١)

لقد ذُكِر قبل قليل الوقتان: قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، واحتوت الآية على ثلاثة أوقات إضافية أخرى للذكر الإلهي وهي: بعد طلوع الشمس، وآناء الليل؛ أي أول الليل وآخره.

هذه أوقات خمسة، والسادس هو دُبر كل صلاة. وقد داوم عليه النبي ﷺ لذلك أصبح من السنة، يقول ابن عباس رضي الله عنه: كنا نعرف انقضاء صلاة النبي ﷺ بذكر: **اللَّهُمَّ** أنت السلام ومنك السلام يا ذا الجلال والإكرام. فأحد الأذكار المسنونة بعد الصلاة قراءة: "**اللَّهُمَّ** أنت السلام ومنك السلام يا ذا الجلال والإكرام"، بالإضافة إلى ذلك يجب قراءة سبحان الله ثلاثًا وثلاثين مرة، والحمد لله ثلاثًا وثلاثين مرة، والله أكبر أربعًا وثلاثين مرة. (انظر: الترمذي، أبواب الدعوات، باب ما جاء في التسبيح والتكبير...). تعدّدت الروايات عن هذا الذكر إلا أن أصحّها هي قراءة الأول والثاني كلاً على حدة ثلاثًا وثلاثين مرة، وقراءة الثالث أربعًا وثلاثين مرة.[8]

[8] هنا سأل أحدٌ حضرتَه: هل يمكن اتخاذ مسبحةٍ لأجل ذلك؟ أجاب حضرته: هذه بدعة. (الناشر)

إن الذكر دُبر كل صلاة ذكر من الدرجة العليا، ويجب المداومة عليه عند هذا الوقت. من يراني أو رأى الخليفة الأول أو المسيح الموعود عليه السلام يظن أننا ربما لا نقوم بالذكر الإلهي بعد الصلاة، فليعلموا أن المسيح الموعود عليه السلام والخليفة الأول رضي الله عنه كانا يقومان بالذكر الإلهي وأنا أيضًا أقوم به إلا أنهما لم يكونا يرفعان الصوت ولا أرفعه أنا أيضًا، بل نذكر الله تعالى بصوت خافت في القلب، فيجب على الجميع المداومة على الذكر الإلهي عقب كل صلاة.

وإضافة إلى ما تقدم هناك احتياطات ضرورية أخرى أيضًا وهي: تجنُّب الذكر بصوت مرتفع إلا فيما ثبت بالحديث الصحيح، لأن ذلك يولّد الرياء في بعض الأحيان، كما يسبب إزعاجًا لمن يقوم حوله بالذكر أو يصلي الصلاة.

اعلموا أن نفس الإنسان تتثاقل عن كل جديد تختاره، ولا يتشجّع القلب على العمل به، ولهذا السبب يقول البعض أنهم لا يجدون متعة في الذكر. ولكني أسألهم هل يمكن لأحد أن يبلغ الكمال في صنعة ما بين ليلة وضحاها؟ كلا، بل يحصل ذلك رويدًا رويدًا وبعد الممارسة لفترة لا بأس بها. لذلك فإن لم يطمئّن قلب الذاكر في البداية وتثاقلت نفسه في الذكر فينبغي ألا يقلق بل عليه المثابرة وسيجد أن قلبه سيأنس ذكر الله.

ويقول بعض الناس أنهم قد وصلوا إلى مرحلة اللذة في ذكر الله ولكن عليهم ألا يبحثوا عن هذه اللذة لأنفسهم، وألا يجعلوا الحصول على اللذة هدفًا لهم بل ينبغي أن يقوموا بالذكر الإلهي من أجل عبادة الله تعالى لأن الهدف ليس اللذة بل العبادة. ولا تقبل العبادة إلا إذا قام بها العبد بنية العبادة.

ويقول البعض أنهم يمرّون بحالة القبض أيامًا وأخرى بحالة البسط. ويجب على هؤلاء أيضًا ألا يقلقوا، لأن حالة القبض هذه ليس غريبة بل يمرّ بها الناس جميعًا من جميع المستويات، جاء النبي ﷺ أحد الصحابة وقال: نافقت يا رسول الله، قال النبي ﷺ: بل أنت مسلم، قال: يا رسول الله عندما أكون في مجلسك أشعر وكأنني أرى الجنة والنار رأي العين، ولما أذهب إلى بيتي تذهب عني تلك الحالة. قال ﷺ: لو دامت تلك الحالة لـــمُتُّم.[9]

[9] نص الرواية المشار إليها كالتالي: عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ قَالَ ... دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا ذَاكَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. (مسلم، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة)- (المترجم)

الحقيقة أنه لو ظل الإنسان على حالة واحدة لـــفَقَدَ قوة الازدهار والرقي. لذلك فإنّ الله تعالى يردّ الإنسان إلى الأسفل ليتخذ قفزة طويلة فيصل إلى درجات أعلى من التي كان عليها سابقًا، ويدفعه أحيانًا إلى الأعلى للغرض نفسه.

ويجب الأخذ بعين الاعتبار أن حالة القبض نوعان إحداهما حسنة والأخرى سيئة. ويمكن التمييز بينهما إن قدّر الذاكر اللذة على درجات، ولتكن مثلًا خمس درجات. فإذا كان في الدرجة الثانية ثم أصابته حالة القبض ونزلت به إلى الدرجة الأولى فليعلم أن هذه الحالة تؤدي به إلى إحراز الخير، ولكنه لو كان في الدرجة الثالثة ثم أصابته حالة القبض فينبغي أن يرى هل أرجعته هذه الحالة إلى الدرجة الثانية أم إلى الأولى أو إلى الصفر؟ فلو أوصلته إلى الدرجة الثانية فهي ستؤدي إلى رقيه أما إذا أوصلته إلى الدرجة الأولى أو إلى الصفر فهذه خطيرة وعليه بالسعي الجاد للتخلُّص منها.

الصلاة؛ أهم أقسام الذكر

والآن أخبركم عن الصلاة التي هي ذكر هام وضروري جدًّا لأن المؤمن يذكر الله تعالى فيها قائمًا وقاعدًا وراكعًا وساجدًا، كما يتلو فيها الآيات القرآنية ويردد أذكارًا أخرى. فالصلاة ذكر جامع

لجميع أنواع الأذكار. وبما أن موضوع الصلاة يحتاج إلى الشرح والتفصيل لذلك تركته جانبًا قبل هذا والآن أسلط الضوء عليه.

تُقسَم الصلاة إلى أجزاء، ١) الفروض ٢) السنن ٣) النوافل. الفروض والسنن يؤديها الجميع، أما النوافل فيلاحَظ أن الناس يتكاسلون في أدائها عمومًا. الغاية من صلاة السنن أن تسدّ نقص صلوات الفرض، وذلك لأن الله تعالى إنما يتقبّل الصلاة الكاملة ولا يقبل صلاةً ناقصةً، فإذا كان هناك نقص ما في الصلاة كمّلتها السنن. على سبيل المثال، صلى امرؤٌ صلاةً فرضًا إلا أن الوساوس المختلفة أخذت تراوده في إحدى الركعات فلم يستقم تركيزه فيها، لذلك فإن تلك الركعة لم تعد مقبولة، فتعوّضها صلاةُ السنة حتى تكتمل صلاةُ الفرض. ولما كان النبي ﷺ أدرى بكيفيات قلب الإنسان لذلك سنّ صلاة السنن إلى جانب الفرائض لتعويض نواقص الفرائض، وبذلك يكون النبي ﷺ قد أسدى إلى أمته إحسانًا عظيمًا.

فضل النوافل

أما النوافل فهي في الحقيقة ذريعة للتقرب إلى الله، بعبارة أخرى إنها تؤدي بالمؤمن إلى الارتقاء إلى أعلى مدارج قرب الله إضافة إلى النجاة. وعلى من يبتغي قرب الله تعالى أن يكثر من النوافل. وصلاة

النوافل أنواعٌ؛ فمنها ما يُصلّى نهارًا، ومنها ما يصلّى ليلًا وقد سمّي بالتهجد، تقع صلاة التهجد على جانب كبير من الأهمية ويمكن معرفة درجتها من خلال فضلها الذي ذكره الله تعالى في كلامه المجيد: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ (المزمل: ٧) أي أن قيام الليل وسيلة مثلى لإصلاح النفس. فإذا جرّب أحد فسيرى أن قيام الليل يؤدي إلى إصلاح النفس على نطاق واسع جدًّا، ويكتسب الإنسان قوة وطاقة خاصة. كان صحابة النبي ﷺ يداومون عليها مداومة خاصة. وكان النبي ﷺ يهتم بها إلى درجة أنه كان يتفقد الصحابة ليعلم من يقوم بها ليلًا ومن يتكاسل عنها.

روي أن بعض الصحابة أثنوا في مجلس الرسول ﷺ على بعض مزايا عبد الله بن عمر، فقال لهم النبي ﷺ: إِنَّ عَبْدَ اللهِ رَجُلٌ صَالِحٌ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِن اللَّيْلِ. (البخاري، كتاب التهجد، باب فضل قيام الليل)

كان عبد الله بن عمر يومها في ريعان شبابه وكان يتكاسل في أداء صلاة التهجد لذلك فقد لفت النبي ﷺ انتباهه إلى ذلك بهذا الطريق.

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قَامَ مِن اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ فَصَلَّتْ فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ. وَرَحِمَ اللهُ امْرَأَةً قَامَتْ

مِن اللَّيْلِ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا فَصَلَّى فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ. (مسند أحمد بن حنبل، باقي مسند المكثرين، مسند أبي هريرة)

لاحظوا أن النبي ﷺ الذي أمر المرأة بالتأدب مع زوجها ولكنه سمح لها أن ترش على وجهه ماءً إذا لزم الأمر من أجل صلاة التهجد. ومن هنا تتضح أهمية صلاة التهجد.

ثم يقول القرآن الكريم بأن ناشئة الليل أفضل الطرق لتقويم النفس وإصلاحها. ولأجل ذلك كان النبي ﷺ يأمر الصحابة بأداء صلاة التهجد ولو ركعتين. إضافة إلى ذلك ورد في الأحاديث أن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا في الهزيع الأخير من الليل، ويستجيب الدعوات كثيرًا، لذلك فإن صلاة التهجد ضرورية ونافعة جدًّا.

الوسائل الثلاث عشرة للقيام لصلاة التهجد

والسؤال المطروح الآن: ثبت أن صلاة التهجد ضرورية، ولكن ما السبيل لنستيقظ ليلًا؟

أدلكم على أبسط طريق أولًا، وقد يكون هذا الطريق ضارًّا نوعًا ما، إلا أنه يمكن أن يكون مفيدًا بدايةً، وهو أنه يمكن للإنسان أن يستيقظ بواسطة ساعات المنبه المتوفرة الآن للجميع. ولكن تجربتي الخاصة أثبتت أنها ليس بالطريقة المفيدة جدًّا،

والسبب في ذلك أن الإنسان يطمئن بسببها إلى أنها ستوقظه في الوقت المعين مما يحرمه من حسنة التفكير والقلق من أجل الاستيقاظ لصلاة التهجد. فلو كان متفكرًا ونام على هذه الحالة فكأنه قام يعبد الله تعالى طول الليل. إضافة إلى ذلك إن لم ترض النفس أن تستيقظ فقد تمتد يدُ الإنسان فتُسكِت المنبِّه. ولكنه لو نام بنية الاستيقاظ وإرادة صلاة التهجد فلا بد أن يستيقظ في الوقت المحدد. وأضف إلى ذلك أن من يستيقظون بواسطة المنبه يشكون من غلبة النوم أثناء الصلاة، والسبب في ذلك أنهم استيقظوا بواسطة المنبه ولم يستيقظوا بعقد النية والإرادة. لذلك فإنه ليس طريقًا ناجعًا جدًّا إلا أنه يمكن أن يكون مفيدًا في المرحلة الابتدائية أو عند الحاجة إليها لضرورة ما.

أرى أن الوسائل المفيدة للقيام لصلاة التهجد هي ثلاث عشرة. وأنا على يقين أن من يعمل بها فلا بد أن يحرز نجاحًا ملموسًا. لا شك أن بداية كل أمر صعبة، ولكن العامِل بهذه الوسائل لا بد أن ينجح في نهاية المطاف. وإن جلّ هذه الوسائل مأخوذة من القرآن الكريم ومن الأحاديث النبوية وليست من عند نفسي. إلا أن الله تعالى بفضل خاص منه كشفها عليّ في حين أنها بقيت مخفية عن

الآخرين. ولولا ضيق المقام لأوردت تلك الآيات والأحاديث التي استنبطت منها هذه الطرق. لذلك فسأكتفي هنا بذكر النتائج فقط.

الطريق الأول

لقد أودع الله تعالى الطبيعةَ قانونًا أنه كلما حان موعد ميلاد شيء ما، حدث فيه تهيج وحماس. وهناك أمثلة كثيرة تثبت ذلك، منها أن الذي ينتابه مرض ما في صغره يعود إليه المرض نفسه في شيخوخته التي تشبه حالة الطفولة. وتجدون الظاهرة نفسها في الأشجار والطيور أيضًا. ويمكننا الاستفادة من هذا القانون في الاستيقاظ ليلاً لصلاة التهجد، وذلك بالقيام بالذكر الإلهي لمدة بعد صلاة العشاء. ويستفيد الذاكر من هذا العمل أنه سيفيق قبل صلاة الفجر بفترة مساوية للتي قضاها في الذكر الإلهي قبل نومه.

الطريق الثاني

هو عدم التكلم مع أحد بعد صلاة العشاء[١٠]، وقد منع النبي ﷺ عن الخوض في الحديث بعد العشاء وإن ثبت أيضًا أنه كان يتكلم أحيانًا بعدها إلا أنه منعه عمومًا. والحكمة في ذلك هي أنه إذا

[10] هنا سأل أحد حضرته: هل يمنع أن يتكلم مع زوجته أيضا؟ قال: يجب ألا يتكلم مع أحد إلا لضرورة قصوى ولو كانت زوجته. (الناشر)

بدأت الأحاديث بعد العشاء فلا بد أن يسهر الإنسان لمدة طويلة مما يؤدي به إلى التأخر في النهوض صباحًا. كما أنه لو كانت تلك الأحاديث دنيوية فستلهيه عن الدين. لذلك نهى النبي ﷺ عن الحديث بعد العشاء وأوصى بالنوم دون الكلام حتى ينام المرء وهو يفكر في الأمور الدينية ولكي يستيقظ عليها صباحًا. لا تُمنع الأعمال المكتبية أو الأعمال الهامة الأخرى بعد صلاة العشاء، ولكن الضروري هو ألا ينام بدون الذكر الإلهي. هذا هو الطريق الثاني.

الطريق الثالث

هو أن يتوضأ المرء بعد صلاة العشاء قبل لجوئه إلى فراشه للنوم، ويجب أن يجدّد وضوءه ولو كان على وضوء سابقًا. وذلك لأنه يترك تأثيرًا إيجابيًا خاصًّا على القلب ويولّد نشاطًا خاصًّا. وإن الذي ينام نشيطًا بسبب الوضوء يستيقظ نشيطًا أيضًا. ولوحظ عمومًا أن من ينام باكيًا يستيقظ على صرخة منه، وإذا نام مستبشرًا ومسرورًا استيقظ بوجه بشوش. وعليه فمن يتوضأ قبل النوم ثم ينام نشيطًا فإنه ينهض نشيطًا أيضًا وهكذا يستفيد في الاستيقاظ من أجل التهجد.

الطريق الرابع

هو ألا ينام إلا على ذكر من الأذكار مما يؤدي به إلى الاستيقاظ ليلاً من أجل الذكر مرة ثانية. ولهذا السبب نفسه كان النبي ﷺ يقرأ قبل نومه[11] آية الكرسي وسورة الإخلاص والمعوذتين ثم ينفث في يديه ويمسح بهما سائر جسده، وكان يفعل ذلك ثلاث مرات، ثم يضطجع على يمينه ويقرأ:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ لَا مَلْجَأَ وَلَا

---

[11] وآية الكرسي هي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة ٢٥٦)

وسورة الإخلاص والمعوذتان هي:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص ١-٥)

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (الفلق ١-٦)

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (الناس ١-٧) (الناشر)

مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ. قَالَ الْبَرَاءُ فَقُلْتُ وَبِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ قَالَ فَطَعَنَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِي ثُمَّ قَالَ وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ. (الترمذي، أبواب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء إذا أوى إلى فراشه)

فـــيجب على كل مؤمن أن يفعل كما فعل النبي ﷺ، وعليه الالتزام بذكر من الأذكار عندما يأوي إلى إلى فراشه كأن يقول: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم أو أي ذكر آخر إلى أن ينام. لأن الإنسان يظل طول الليل على الحالة التي نام عليها عمومًا. فمن نام مسبِّحًا ومحمِّدًا ربّه فكأنه ظل في هذه الحالة طول الليل. وبإمكانكم أن تلاحظوا أن النساء والأطفال إذا ناموا في حالة الغم أو الضيق فإنهم كلما تحركوا على فراشهم يتنهدون ويصدرون أصواتًا ملؤها الألم، وذلك لأنهم يظلون تحت تأثير ذلك الغم والألم الذي يشعرون به عند نومهم. فمن نام مسبّحًا خرجت من فمه كلمة التسبيح كلما تقلّب في فراشه ليلاً. ولهذا السبب يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (السجدة: ١٧)

يبدو في الظاهر أن الآية تُناقض الواقع إذ إن النبي ﷺ أيضا كان ينام والمؤمنون الآخرون أيضًا ينامون. والحقيقة أنهم ينامون مسبّحين

الله تعالى لذلك لا يُعدّ نومهم نومًا بل تسبيحًا، فإنهم إن كانوا نائمين في الظاهر إلا أنهم في الحقيقة ليسوا نائمين بل تتجافى جنوبهم عن المضاجع ويكونون مشغولين في ذكر الله تعالى.

الطريق الخامس

وهو أن يعقد المرء العزم عند النوم على أنه لا بد أن يستيقظ لصلاة التهجد. لقد فطر الله تعالى نفس الإنسان على الخضوع للأوامر الحازمة التي يصدرها صاحبها، وهو أمر مسلّم به عند جميع الحكماء والعقلاء على مرّ العصور. فلو نمتم بعد عقد العزم على النهوض للتهجد فإن روحكم ستبقى مستيقظةً ومتذكّرةً بأنها أُمرَتْ بإيقاظ صاحبها في وقت معين وبالتالي ستستيقظون تلقائيًا عند ذلك الوقت المعين.

الطريق السادس

وهو ما لا أحبذ أن يعمل به إلا من كان إيمانه قويًّا، وهو ألا يصلي المؤمن صلاة الوتر بعد العشاء مباشرة بل يؤخّرها إلى صلاة التهجد. لقد لوحظ عمومًا أن الإنسان يهتم بأداء الفروض، أما النوافل فكثيرًا ما يتكاسل في أدائها. ولكن عندما يضاف الواجب إلى النوافل فلن ترتاح روحه ما لم تؤدّها وبالتالي لن تتكاسل نفسُه.

أما لو صلى صلاة الوتر مع العشاء ثم صادف أن استيقظ عند صلاة التهجد قالتْ له نفسه لقد صليت الوتر أما النوافل فلا حرج في عدمِ أدائها، ولكن لو تذكر أنه لم يصلّ صلاة الوتر فلا بد أن يستيقظ، وإذا استيقظ للوتر فلا بد أن يصلي النوافل أيضًا.

يخص هذا الطريق أقوياء الإيمان كما أخبرتكم، إذ إن قوي الإيمان لا بد أن يستيقظ لأداء صلاة الوتر، وإلا فسيُحرم من صلاة الوتر إضافة إلى النوافل.

الطريق السابع

وهو أيضًا خاص بمن قطعوا شوطًا كبيرًا في الروحانية، ويتلخّص في أن يبدأ المرء بأداء النوافل بعد صلاة العشاء ويستمر إلى أن يغلبه النعاس ويُثقل النوم عينيه إلى درجة لا يعود فيها قادرًا على مقاومته فيخلد إلى النوم. ومع أن هذا العمل يستغرق وقتًا كثيرًا ويؤخّر النوم ولكن مع ذلك سيستيقظ مبكرًا بسبب هذه الرياضة الروحية.

الطريق الثامن

وهو ما كان معروفًا عند الصوفية. لم أشعر بضرورته إلا أنه مفيد أيضًا، وهو أن يُبعد الإنسانُ عنه سريرَه الوثير في الأيام التي يغلبه النوم كثيرًا ويخشى عدم استيقاظه لصلاة التهجد.

الطريق التاسع

وهو أن يتناول المرء طعام العشاء قبل ساعات من النوم، أي قبل صلاة المغرب أو بعدها فورًا. إذ إن روح الإنسان تكون نشطة أحيانًا إلا أن جسده يثقلها ويجعلها كسولةً، لأن الجسد طوقٌ يحيط بالروح، وكلما ثقل هذا الطوق سيطر على الروح. لذلك يجب ألا تكون المعدة مليئة بالطعام قبل النوم لأن ذلك يؤثر على القلب مما يؤدي إلى كسل الإنسان.

الطريق العاشر

وهو ألا ينام الإنسان ليلًا على جنابة أو على عدم طهر آخر، لأن للملائكة علاقة كبيرة مع الطهارة، فلا تنزل على رجل وسخ بل تبتعد عنه. ولأجل ذلك لما قُدِّم للنبي ﷺ طعام به رائحة كريهة قال للصحابة: كلوه أنتم، أما أنا فلا أستطيع. فرد الصحابة: نحن أيضًا لن نأكله. فقال لهم: كلوه أنتم أما أنا فتتكلم معي الملائكة وهي تنفر من مثل هذه الأشياء التي لها رائحة كريهة لذلك لا آكلها.

إن الملائكة تنفر من القذارة والوساخة نفورًا كبيرًا. روى الخليفة الأول رضي الله عنه وقال: ذات ليلة تعشيت ونمت دون غسل

اليدين. فرأيت في الرؤيا أن أخي زارني وأراد أن يعطيني القرآن الكريم، فلما تقدمتُ لتناوله قال لي لا تلمسه لأن يديك غير نظيفتين. هذا يعني أن لنظافة الجسد تأثيرا كبيرا على القلب. فمن ينام على النظافة أيقظته الملائكة لصلاة التهجد، ولكنها لا تأتي إلى من لا يكون على قدر مقبول من النظافة، وعليه فإن هذا الطريق يتعلق بنظافة الجسد.

الطريق الحادي عشر

وهو أن يكون سرير المؤمن نظيفًا وطاهرًا. اعلموا أن كثيرًا من الناس لا يهتمون بهذا الأمر ولكن ينبغي أن يتذكّروا أن لطهارة الفراش ونظافة السرير علاقة خاصة بالروحانية، لذلك عليهم أن يهتموا بهذا الأمر اهتمامًا خاصًّا.

الطريق الثاني عشر

وهو طريق لتجنُّب أمرٍ يمكن أن يكون العمل به ضارًّا لعامة الناس غير أنه ليس بضارٍّ لخواصهم. وهو أن ينام الزوجان في سرير واحد. صحيح أن رسول الله ﷺ كان ينام مع زوجاته في فراش واحد ولكن شأنه الأرفع ومقامه الأعلى يجعلانه بمعزل عن التأثر.

أما الآخرون فينبغي عليهم أخذ الحيطة في هذا المجال وعدم النوم في سرير واحد. الحق أنه كلما زاد تأثير الشهوات الجسدية أُغْلِقَت أبواب الروحانية. ولأجل ذلك أمرنا الإسلام بالأكل والشرب دون أن نسرف فيهما، لأن ذلك يؤدي إلى الإثارة الشهوانية التي تضر بالروحانية ضررًا عظيمًا. فمن كانت لهم سيطرة كاملة على أنفسهم لا بأس في أن يناموا مع زوجاتهم في سرير واحد أما عامة الناس فعليهم تجنّب هذا الطريق ويجب عدم نوم من ليست لهم سيطرة كاملة على نفوسهم مع زوجاتهم، لأنهم بهذه الطريقة يتعرضّون للأفكار الشهوانية مرة بعد أخرى مما قد يؤدي بهم إلى الجماع أو التقبيل في حالة النوم وهو ما يؤثر على الروحانية تأثيرًا سيئًا ويفضي إلى التكاسل في النهوض من أجل صلاة التهجد.

الطريق الثالث عشر

وهو الأمثل والأنجع، فإنه يساعد على النهوض لصلاة التهجد، كما يساعد العمل به على اجتناب السيئات والموبقات أيضا. وهو أن يحاسب الإنسان نفسه قبل النوم ويحاول أن يتفقّد ما إذا كان قلبه يحتوي على حقد أو ضغينة تجاه أحد فيخرجهما من قلبه. وستكون

النتيجة أنه سيوفّق للاستيقاظ لصلاة التهجُّد بسبب طهارة روحه حتى لو عاودته مثل هذه الأفكار فيما بعد وتمكّنت منه، ولكن عليه أن يخلي قلبه من مثل هذه الأفكار قبل النوم. وإذا كان أحد يرى في هذه الأفكار منفعة مادية فليقل في قلبه بأنه سيتذكّر ذلك نهارًا أما الآن فليخل قلبه منها ليلاً على الأقل لأنه لن يخاصم أحدًا ليلاً. لو اجتثّتْ جذور فكرة ما من القلب فلن تعود مرة أخرى، كما أن الإنسان سيقي نفسَه من الأضرار المتوقعة لمثل هذه الأفكار، لأنه من الثابتِ المجرَّبِ أن أثر الشيء يتعاظم في النفس كلما طال وجوده فيها، مثلاً إذا مسحنا سريعًا شيئًا بالإسفنج المتشرب ماءً فلا يبتل هذا الشيء إلا قليلًا، بينما لو تركنا الإسفنج المتشرب ماءً على شيء فلا بد أنه سيتبلل أكثر بكثير، وعليه فإن الأفكار التي تراود الإنسان فترة طويلة تترسّب في قلبه أكثر، وإن روح الإنسان تردّد كل الليلة تلك الأفكار نفسها التي ينام عليها الإنسان. إن ضرر الأفكار السيئة في الليل أكثر من ضررها في النهار لأن الإنسان ينشغل عنها نهارًا في أمور أخرى، أما في الليل فلا تفتأ تراوده تلك الأفكار مرة بعد أخرى. لذلك يجب طرد جميع الأفكار الخبيثة قبل النوم وذلك حتى لا تترسخ في القلب. ولكن إذا ترسخت فكرة سيئة في القلب استعصى اقتلاعها. بالإضافة إلى ذلك لو مات المرء ليلًا فلن يجد

فرصة للتوبة عن تلك الأفكار السيئة. هكذا يجب تخويف النفس، فلو خرجت الأفكار السيئة منها مرة ما عادتْ إليها ثانيةً ويكون قد نجا منها.

خلاصة القول، يجب عدم ترك الأفكار الفاسدة في القلب والذهن عند النوم. ومن صفّى نفسه وطهّرها على هذا النحو فسيوفّق للاستيقاظ من أجل صلاة التهجد.

طرق الخشوع في الصلاة

والآن أخبركم كيف يمكن الحصول على الخشوع في الصلاة. وما أكثر سؤال الناس عنه، لذلك سأخبركم اليوم عن طرقه، منها ما تستخدمونه ولكن لا تستفيدون منه استفادة تامة، أما الذين يستخدمونها بصورة صحيحة فلا بد أنهم ينتفعون منها أيضًا. الحق أن الشريعة قد أودعت الصلاة بعض القوانين التي تكفل استقامة التركيز والتوجّه ولكن الجهل بهذه القوانين يحرم كثيرًا من الناس الانتفاع بها. بالإضافة إلى ذلك سأخبركم عن بعض الطرق الأخرى التي يغفلها الناس ولا يعملون بها في حين أن العمل بها يؤدي إلى إحراز حالة الخشوع في الصلاة.

وقبل التطرُّق إلى القسم الأول من هذه الطرق أريد أن أنبّهكم إلى أن الله تعالى قد فطر الإنسان على صورة بحيث لو استخدم شيئًا وفكر في منافعه أثناء استخدامه وكان موقنًا بمنافعه فلا بد أن يحقق له ذلك فوائد جمّة. كتب أحد الأساتذة الأوروبيين لرياضة "الساندوز": عليكم بالرياضة من أجل الصحة وكسب القوة، وبالإضافة إلى ذلك يجب أن توقنوا أن سواعدكم وعضلاتكم تتقوى شيئًا فشيئًا. لا شك أن الرياضة تقوي السواعد ولكن إذا رافقها شعور بتأثيرها البارز على جسم الإنسان فإنه يصير مستعدًّا لقبول أثر الرياضة بشكل أفضل، وإلا فإن الرياضي سيُحرم من قسط كبير من تأثيراتها وفوائدها.

الطريق الأول

لقد سنَّتْ الشريعة الإسلامية بعض القوانين من أجل إحراز حالة الخشوع في الصلاة، فالوضوء قبل كل صلاة هو أول تلك القوانين. وإن فلسفة الوضوء لها علاقة بمجموعة الأعصاب في جسم الإنسان التي جعلها الله تعالى ذريعة لنقل الأفكار والأحاسيس، وإنها بمنزلة مسارات لنقل الأفكار، ولهذا السبب نفسه كان النبي ﷺ يقرأ آية الكرسي وينفخ بها على يديه ثم يمسح بهما جسده. فهل كان هذا

الفعل لغوًا؟ كلا، بل الحقيقة أن تأثير الأفكار ينتقل عن طريق الأعصاب والصوت والنفخ. وكان النبي ﷺ يجمع بين الطرق الثلاثة المذكورة حيث كان يقرأ آية الكرسي باللسان، ثم ينفخها على يديه، ثم يمسح بهما جسده. باختصار، إن الصوت والأعصاب والبصر والنفخ وغيرها مسارات لنقل الأفكار. ولهذا السبب ثبتت الرقية عن صلحاء الأمة بل هو ما روي عن النبي ﷺ أيضًا.

ولما كانت الأفكار تخرج وتنفذ عن طريق الأعصاب وتنتشر لذلك أمر النبي ﷺ بالوضوء لتجميعها والتحكم فيها. ولما كانت المنافذ الكبيرة لتنفيذها هي اليد والرجل والفم، فتخبرنا التجربة أن سكْب الماء عليها يسدُّ أمواج الأفكار التي تتعلق بها. هذه مسألة ثابتة وهي حكمة من حِكم الوضوء. لا شك أن هناك حكمًا أخرى أيضًا للوضوء وإحداها هذه التي تضع حدًّا لتيار الأفكار، وعند ذلك تقرّ السكينة في النفس وبالتالي يحصل الخشوع ويستقيم التركيز. فالوضوء ذريعة سامية من ذرائع الحصول على الخشوع. ولكن عند الوضوء يجب أن تشعروا أنكم تقومون بذلك من أجل سدّ منافذ الأفكار المشتتة، وإذا فعلتم ذلك فستنالون السكينة في الصلاة ولن تستطيع الأفكار المختلفة تشتيت تركيزكم وإفساد حالة الخشوع عندكم.

الطريق الثاني

هو ما نصّت عليه الشريعة الإسلامية للحصول على الخشوع في الصلاة حين أمرت بإقامة الصلاة جماعةً في المسجد. إن الإنسان مفطور على أنه من خلال رؤيته لشيء يتنبّه إلى أشياء أخرى. مثلاً، يقابل أحد زيدًا وعند ذلك يتذكّر ابنه بكرًا فيسأل عن حاله أيضًا. إنه يتذكّر بكرًا على غيابه أيضا بمجرد لقائه مع زيد. لقد خلق الله تعالى دماغ الإنسان على هذا النحو بحيث لو رأى شيئًا تذكّر أشياء أخرى تتعلّق به. فلو صلى أحد في مكانٍ ليس له ارتباط بالصلاة على وجه الخصوص فلن يتذكّر شيئًا عند صلاته فيه، ولكنه لو صلى صباح مساء في مكان يُعبد فيهِ الله تعالى وهو يسمى بيتُ الله فلا بد أن يتذكّر أنه يقف بين يدي الله تعالى الذي خُصِّصَ هذا المكان لعبادته، وأن من واجبه أن يطيعه بصدق القلب وإخلاص النيّة. وللغرض نفسه أمرنا النبي ﷺ بتخصيص مكان للصلاة في بيوتنا وألا يقام فيه أي عمل آخر غير العبادة وذلك حتى يتذكر الإنسان عند صلاته هناك أنه يقف في مكان عبادة الله تعالى. (المشكاة، كتاب المناسك، باب المساجد ومواضع الصلاة)

ومن الممكن ألا يخطر ذلك في بال البعض عند صلاتهم في المسجد أيضًا، ولكن لو توجهتم الآن إلى المساجد بعد أن عرفتم

الحكمة من وراء الصلاة فيها فستنسدُّ السبل على تلك الأفكار التي كانت تراودكم وستحصلون على السكينة والخشوع.

الطريق الثالث

إن الأمر بالتوجُّه نحو القبلة أيضًا يساعد على تجميع الأفكار والتوجّه نحو الله سبحانه أثناء الصلاة. تمتاز مكة بخصوصيات كثيرة أهمها أنها ذلك المكان الذي ترك فيه أحد رجال الله تعالى وفق أمره ﷻ زوجته وابنه بلا مأكل ومشرب وبدون حراسة في واد غير ذي زرع. وبما أنه قام بكل ذلك وفق أمر الله تعالى له لذلك فإن الله تعالى قد كثّر نسله إلى درجة أنْ أصبحوا مثل نجوم السماء التي لا تُعدّ ولا تحصى، واصطفى من نسله العديد من الأنبياء، وكان من نسله أيضًا مَن بعثه الله تعالى نبيًا إلى الناس كافة. فمن صلى متوجّهًا شطر مكة المكرمة وهو مدرك لحكمة التضحية من وراء استقبال القبلة في الصلاة فلا بد أن يتذكّر حادثة إسماعيل عليه السلام ويتأثّر بها، وينتبه تلقائيا إلى أن الإله الذي يقوم لعبادته هو الإله العظيم والقادر، وعند تذكُّره هذه الأمور لا بد أن تزول عنه حالة تشتت الأفكار ويسودها جلال الله تعالى وهيبته.

الطريق الرابع

هو الأذان الذي أمرنا به رسول الله ﷺ. لا تبدأ الصلاة بارتفاع صوت "الله أكبر، الله أكبر" بل هو تنبيه للمصلين وكأنما يقال لهم يجب أن تأتوا المسجد متفكرين بعظمة الله الذي ستقفون بين يديه. لذا فإنّ من استمع للأذان تأثر بعظمة الله تعالى وجلاله مما سيؤدي إلى تركيزه في الصلاة.

لقد قال النبي ﷺ: يرُفع الأذان لطرد الشيطان. ولقد ورد في الحديث: إذا أذن المؤذن هرب الشيطان. (السنن الكبرى للبيهقي). فلو عرف أحد الهدف من الأذان وهو التنبه إلى هيبة الله وجلاله فلا بد أن يتذكر هذه الحكمة عند سماعه له. ومن سمعوا اليوم الحكمة من الأذان فلا بدّ أنهم سيتذكّرونها عند سماعهم له وإذا تذكّروا ذلك فلا بد أن يتأثروا به. وهذه قاعدةٌ أنه إذا ساورت الإنسانَ فكرةٌ ما تلاشت معها أفكار أخرى، وعليه فعند تفكيركم في عظمة الله تعالى وجلاله تتلاشى الأفكار الأخرى وستتمتّعون بحالة الخشوع.

الطريق الخامس

هو الإقامة، وهي أيضًا تذكّر المصلي بعظمة الله وجلاله. ولها الحكمة نفسها التي ذكرت في الأذان. قال رسول الله ﷺ عن

الإقامة: إِذَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ. (مسلم كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه) وليس المراد منه إلا أنها تزيل وساوس الشيطان فيستقيم توجه الإنسان إلى الله تعالى.

الطريق السادس

هو الوقوف صفًّا أو تسوية الصفوف. إن التقيد بممارسة عمل ما بأعضاء الجسم يؤدي إلى استقامة الأفكار وتجميعها ولا يدعها تتشتت. ولدى تسوية الصفوف بصورة ظاهرية تنسلك الأفكار الداخلية أيضًا في سلك معين. فما أعظم ذلك المشهد هيبةً عندما يقف الجميع صامتين بين يدي ملك الملوك! لقد أمرنا رسول الله ﷺ بقوله: لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ. (مسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف) أي سوّوا صفوفكم وإلا فستختلف قلوبكم وتعوجّ. فماذا عسى أن تؤثّر تسوية الصفوف ظاهريًا؟ إنما هو من قبيل أثر الظاهر على الباطن، وعليه فلو لم يكن أحد منضبطًا ظاهريًا فسيؤثر ذلك على انضباطه الباطني أيضا.

الطريق السابع

هو نية الإنسان للصلاة. فمن قام للصلاة بعد إعلامِه نفسَه بأنه وقف من أجل هذا العمل فلا بد أن تركيزه يكون منصبًا على ذلك

العمل الحاضر. ولا تعني النيّة أن يتلفّظ الإنسان خلف الإمام بأنني أصلي ركعات كذا من صلاة كذا وراء هذا الإمام متوجهًا إلى القبلة الشريفة وغيرها من أقوال أخرى. بل ينبغي أن ينوي الصلاة في ذهنه.

يُحكى عن شخص اعتاد على النيّة إلى حد الجنون، وكلما قام للصلاة مع الجماعة قال نويت الصلاة مؤتمًا بالإمام، ولكنه إذا كان في أحد الصفوف الخلفية ظنّ بأنه ليس وراء الإمام مباشرة بل أمامه شخص آخر، فكان ينتقل إلى الأمام ثم كان يخشى أنه ليس وراء الإمام مباشرة فكان يتقدّم أكثر ويقف وراء الإمام تمامًا ثم يلمسه بيده ويقول نويت الصلاة مؤتمًا بهذا الإمام.

لقد وقع الناس في مثل هذه الأوهام أيضًا، وهذا خطأ، وعواقبه وخيمة، لأن النيّة تتحوّل بسبب تلك الأوهام إلى مصيبة. فاعلموا أن النيّة هي نيّة القلب، ولكن بعض الناس يقومون إلى الصلاة وهم لاهون عن كنه ما يقفون لأجله. لذلك فإن قمتم إلى الصلاة فتوجهوا إليها بأفكاركم وأدركوا خطورة ما شرعتم في الإقدام عليه. فعند استيعابكم هذا الأمر تبدأ الخشية تتولّد فيكم، والخشية تضمن استقامة التوجه والحصول على الخشوع.

الطريق الثامن

هو الصلاة بالجماعة، حيث تُلقى في آذان المصلين كلمات تساعد على توجيههم نحو الله تعالى وعظمته. وإذا كان أحد المصلين في غفلة من أمر الصلاة وساورته أفكار أخرى فإن صوت الإمام ينبهّه، فمثلاً عندما يقول الإمام "الله أكبر" فكأنه ينبّه المصلي إلى أنه يقف بين يدي الله تعالى الذي هو الأكبر والأعظم من كل عظيم فينبغي أن يراعي الأدب اللازم معه. ثم إذا شرد المصلي بعد قليل مرة أخرى وذهبت به أفكاره مذاهب شتى قال الإمام مرة أخرى "الله أكبر"، وإذا طرأت عليه الغفلة مرة أخرى قرأ الإمام على آذان المصلين "سمع الله لمن حمده" وهكذا يتمّ توجيهه إلى أنه إذا أراد أن ينتفع بشيء فليحمد الله تعالى وإلا فسيضيع وقته. باختصار يظل الإمام ينبّه المقتدين مرة بعد أخرى إلى الخشوع بين يدي الله، وهذا هو سر أفضلية الإمام على المصلين، لأنه ينبه المصلين مرة بعد أخرى إلى أنهم يقفون بين يدي ملك الملوك والأعظم من كل عظيم والأكبر من كل كبير فحذار أن تتغافلوا بل عليكم بالتنبّه والتيقُّظ.

الطريق التاسع

هو تشريع الله تعالى تنويعًا في الصلاة إذ إنها لا تؤدى بحالة واحدة. فلو انشغل عنها أحد بأفكار أخرى فاختلاف حالة الركوع والسجود تذكّره وتنبهه إلى الصلاة، فالحركة هي عامل من عوامل تنبيه الغافل وإيقاظ النائم فيما لو كان يتحرك للركوع والسجدة مجردَ عادة. وهذه فضيلة اختص بها الإسلام وحده ولا تتميّز بها عبادات سائر الأديان الأخرى.

الطريق العاشر

هو المواظبة على السنن القبلية والبعدية. من قواعد الطبيعة ظهورُ بعض آثار العملِ وشيكِ الحدوث قبلَ حدوثه وبعده أيضًا. خذوا طلوع الشمس مثلاً إذ ينتشر النور قبل طلوعها كما أن هذا النور يظل موجودًا لمدة يسيرة بعد غروبها أيضًا. ولكن العمل الذي يتماشى مع رغبة الإنسان أو الذي يجد فيه الإنسان لذة ما، أو الذي يتوجّس خطرًا من عدم إتمامه فإنه يغلب على الأعمال الأخرى إذ هي تصبح أقل أهمية وأثرًا عنده.

مثلاً لو كان امرؤٌ منشغلاً في عمل لا يرى فيه فائدة تُذكر، وبعد ذلك يريد القيام بعمل إما أنه يترقّب منه منفعة خاصة أو يخاف

ضررًا من عدم إتمامه، أو أنه عملٌ يتفق مع ميوله، فستساوره الأفكار المتعلّقة به حتى عند انشغاله في أمور أخرى وسيصبح ذلك العمل شغله الشاغل. فلو كان أحد الموظفين في دائرة ما مشغولًا بإنجاز أعماله المكتبية وعليه إنجاز عمل خاص وهام جدًّا بعد دوام المكتب فإنه سيظل يفكر فيه قبل انتهاء دوام المكتب بساعة أو ساعتين تقريبًا. وإذا حصل أنْ جذب أحد أعمال المكتب اهتمامه وأعجب به فإنه سيظل متفكرًا فيه حتى بعد الدوام في طريقه إلى البيت ولبعض الوقت في بيته أيضًا، وبعد مضي وقت قليل سيلتفت إلى الأمور الأخرى التي يريد إنجازها بعد ذلك.

لهذه الحكمة نفسها سنّ رسول الله ﷺ السنن القبلية والبعدية لفروض الصلاة وذلك حتى إذا كان أحد منشغلًا في أفكار ما قبل الصلاة فلا تؤثر على الفروض بل يتم كبحها أثناء أداء السنن القبلية فيصلي الفروض مطمئنًا وبحضور تام. كذلك سنّ السنن البعدية للفروض أيضا، وذلك لأنه إذا كان هناك أمر يهمه إنجازه بعد الصلاة فلا تأتيه الأفكار المتعلّقة به قبل انتهاء الفروض فتفسد عليه صلاته، بل يتمكن من أداء صلاته بكل طمأنينة. فلا تأتيه أفكار عمل آخر إلا عندما يكون العمل الأول على وشك الانتهاء ولدى إرادته القيام بالعمل الثاني. فلما يرى الإنسان بأنه لم يفرغ بعد من

الصلاة لأن عليه أن يصلي السنن أيضًا فإن أفكاره الأخرى تظل مكبوتة. وهذه من أعظم الحكَم من سنّ النبي ﷺ السنن للصلوات، ولقد راعى النبي ﷺ هذا الأمر فسنّ السنن المختلفة باختلاف أوقات الصلاة، ولما كانت صلاة الظهر تقع وسط مشاغل الإنسان وأعماله لذلك فقد سنّ النبي ﷺ قبل الفريضة ركعتين أو أربع ركعات قبلها وركعتين أو أربع ركعات بعدها أيضًا. وكأن النبي ﷺ قد جعل من السنن القبلية والبعدية حارسين يحرسان الفروض ويمنعان الأفكار المختلفة من الوصول إلى الفروض. ولم يسنّ النبي ﷺ صلاة السنة قبل العصر إلا أن هناك نوافل تُركتْ على رغبة المصلي فإن شاء صلاها وإن شاء تركها والسبب في ذلك أن الإنسان يكون قد تفرّغ نوعًا ما من أعماله وقت العصر، كما أن وقت العصر هو وقت لإنهاء جميع أعمال النهار لذلك جاءت صلاة العصر قصيرة. أما بعد صلاة العصر فقد سنّ ﷺ الإكثار من ذكر الله ما بين العصر والمغرب. أما صلاة المغرب فلم يسُنّ النبي ﷺ سننًا قبلها لأن وقت المغرب قليل، إلا أنه سنّ ركعتين بعد صلاة المغرب لأنه لا يتبقى عمومًا بعد المغرب إلا تناول الطعام وما شابهه من أمور وتأتي ركعتا السنة لصون الفروض من التفكير بها. ليست هناك سنن قبلية لصلاة العشاء لأن ما يقوم به المرء قبلها من أعمال عمومًا ليست مما

يمكن أن يتعدّى تأثيره إلى أعماله لاحقًا، ولكن يمكن للمرء أداء النوافل إذا شاء وشعر بضرورتها ولكن لما كان الوقت بعد العشاء هو وقت النوم، وتميل النفس إلى الراحة بعد عناء النهار ومشاغله لذلك سنّ النبي ﷺ بعد صلاة العشاء ركعتين وثلاث ركعات الوتر، ويمكن تأجيل صلاة الوتر إلى وقت التهجُّد.

ثم هناك ركعتا السنة قبل صلاة الفجر، وذلك حتى لا يكون المصلي متثاقلاً من أثر النوم، فإن هاتين الركعتين للسنن القبلية تُحولان دون آثار الغفلة وأفكار النوم لدى الإنسان. ولم تسنّ السنن البعدية لصلاة الفجر لأنه ليس من عمل يشغل الإنسان حتى طلوع الشمس، ومع ذلك هناك توجيه خاص لذكر الله تعالى.

خلاصة القول، هذه الأمور تتعلق بالصلاة وسُنَّت من أجل المحافظة على الخشوع في الصلاة. ولكن لا يستفيد منها الإنسان على وجه صحيح إلا بعد فهمها كاملا. لذلك بيّنت حِكَمَها حتى تستوعبوها وتستفيدوا منها. ومن يتذكّر هذه الحِكم ويعمل عليها فلا بد أن ينتفع منها.

والجدير بالذكر أنه كما أن هناك مفاصل مختلفة في جسم الإنسان كذلك الكلمات التي تقرأ في الركوع والسجود وغيرهما فهي مثل مفاصل الصلاة، فلا بد من الانتباه الكثير إلى ما يُقرأ من

كلمات عند هذه المفاصل، فلو فعلتم ذلك لأصبحت صلاتكم قائمة ومتينة جدًّا وإلا فإنها ستسقط.

والآن أخبركم عن بعض الطرق الأخرى لضمان التوجه والخشوع في الصلاة التي لا تدخل ضمن شروط الصلاة و لم تجعلها الشريعة جزءًا من الصلاة، ولكنها تساعد على تحقيق التوجُّه والخشوع لمن يعمل بها.

الطريق الحادي عشر

إن لم تخشعوا في الصلاة فعليكم بترديد كلماتها ببطء شديد لأن من طبيعة دماغ الإنسان أنه يستحضر صورة الشيء الذي يفكِّر فيه مرة بعد أخرى. ولا يتمكّن من استحضار شيء لا يراه إلا قليلًا. مثلًا إذا رأينا زيدًا يوميًا فإن صورته ترد إلى أذهاننا فور ذكره. ولكن إذا كنا نراه أحيانًا قليلة فسيتأخر توارد صورته إلى الذهن عند سماع اسمه ولن تكون واضحة أيضا. لاحظوا أن اللغة الأم التي يتعلمها الإنسان في الصغر تتوارد معاني ألفاظها بسرعة في الذهن عند التكلم بها أو سماع كلماتها، مثلا إذ سمع كلمة الماء فسيتخيّل فورًا حقيقة الماء دون أي تأخير، أو إذا سمع كلمة الخبز فستمثل في ذهنه حقيقة الخبز ومعناه دون أدنى تأخير. ولكن لا يحدث ذلك في

اللغة التي لم يتمكّن الإنسان منها إذ يتأخر كثيرًا ورود معاني الكلمات إلى الذهن من وقت سماعها. مثلاً، ما لم يصبح الأطفال الدارسون اللغة الإنجليزية متقنين لها بمهارة فإنّ تبيان حقيقة الأشياء من سماعهم لأسمائها يتأخر، فمن يقرأ كلمة cat بالإنجليزية يجد حقيقتها تمثل في ذهنه بعد تأخير أما إذا سمع الكلمة بلغته فسترد إلى ذهنه صورة القطة فورًا.

إن المسلمين عمومًا – ما عدا الشعوب العربية والناطقين بها – يجهلون اللغة العربية مما يؤدي إلى عدم تمكّنهم من الخشوع في صلواتهم وذلك لأن الخشوع إنما يتأتى إذا كان الإنسان يعرف معاني الكلمات التي يرددها، ولكن بسبب عدم معرفتهم باللغة العربية لا يدركون بالسرعة المطلوبة معاني العبارات العربية عند ترديدها فتتأخّر فلا ترتبط الكلمات مع معانيها، مثلًا عندما يقول أحد المصلين منهم: ﴿إياك نعبد﴾، فإنه يكون متفكرًا في معاني ﴿الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين﴾ مما يؤدي إلى عدم التركيز الكامل في الصلاة وبالتالي لا ينتفع من الصلاة حق الانتفاع. لذلك فمن لا يعرفون اللغة العربية معرفة جيدة ولا يقدرون على استحضار معاني الكلمات العربية عند ترديدها، عليهم التمهّل أثناء قراءة فقرات الصلاة إلى درجة ألا يقرأوا فقرة جديدة حتى يستحضروا في ذهنهم

معنى الفقرة السابقة. مثلًا عندما يقرأ المرء: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فعليه ألا يتقدم لقراءة ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ ما لم يستحضر معانيها أولًا، وما لم يستحضر معاني هذه الآية الأخيرة لا يتقدم إلى قراءة ﴿الرحمن الرحيم﴾، وهكذا يجب أن يفعل مع جميع الآيات التي يقرأها، لأنه إن لم يفعل ذلك فسيردد بلسانه كلمات وتتبادر إلى ذهنه معاني كلمات أخرى مما يؤدي إلى التباس في الأفكار وتشتتٍ فيها، وبالتالي لن يستقيم تركيزه في هذه الحالة. أما الذين يعرفون اللغة العربية جيدًا فعليهم أن يعوّدوا أنفسهم على التمهُّل أيضًا لأنهم إذا أسرعوا في قراءة الكلمات فلا شك أنهم يستحضرون معانيها بسرعة ولكن لن تكون هناك فرصة لتنجذب هذه المعاني إلى القلب، لذلك عليهم أيضًا أن يتمهّلوا في تلاوة الآيات القرآنية ولا يتقدموا إلا بالتوقُّف عند كل آية.

هذه الطريقة ليست ضرورية عند تلاوة القرآن الكريم فحسب بل يجب العمل عليها في إلقاء الموعظة وتقديم النصح للآخرين، إذ يروى أن أبا هريرة ﵁ كان يروي حديث النبي ﷺ متعجلًا وبصوت عالٍ أيضًا، فاستنكرت ذلك عائشة رضي الله عنها وسألت: من هذا؟ وماذا يفعل؟ أخبرها أبو هريرة عن اسمه ثم قال بأنه يُسمِع الناس أحاديث النبي ﷺ. قالت: وهل كان النبي ﷺ أيضًا يتحدث كما

تتحدث الآن؟ فسكت أبو هريرة. فكان من سنة النبي ﷺ أنه لم يكن يتعجّل في القراءة وكذلك في الوعظ وإسداء النصيحة أيضًا. وعليكم التأسي بسنة النبي ﷺ وأسوته مما سيؤدي إلى الحصول على الخشوع في الصلاة لأنه بذلك تزول تلك الحالة التي يردد فيها اللسان شيئًا ويستحضر القلب شيئًا آخر.

الطريق الثاني عشر

هو الطريق الذي أخبرنا عنه الرسول الكريم ﷺ ولكن كثيرًا من الناس يتكاسلون في العمل به.

لقد أمر النبي ﷺ: من قام للصلاة فلينظر إلى موضع سجوده. ومن المصلين من إذا قام للصلاة أغمض عينيه وظن أنها الطريقة الناجعة ليخشع في حين أنه لا يتأتى إلا بفتح الأعين وليس بإغماضها ولأجل ذلك أمر النبي ﷺ المصلي أن ينظر أثناء القيام إلى موضع السجود.

كتب شهاب الدين السهروردي رحمه الله في كتابه عوارف المعارف أنه إذا ركع المصلي فليحصر نظره بين قدميه. (انظر عوارف المعارف، الباب السابع والثلاثون في وصف صلاة أهل القرب، ج٢، ص١٥)، وأرى أنه صحيح لأنه مفيد للنظر كما

يبعث على الخشوع أيضًا. وهناك حكمة كبيرة كامنة في تحديد النظر في مكان معين وهي أن الله تعالى أودع خلق الإنسان هذا الأمر: أنه إذا اقتصر على استخدام حاسة واحدة تعطلت حواسه الأخرى، مثلاً عندما تكون العين مستغرِقة كل الاستغراق في أمر ما تتعطل حاسة السمع، فلو نادى أحد على من كانت عيناه مستغرقتين استغراقًا كليًّا في شيء ما فلن يسمع شيئًا. كذلك إذا كان مستغرقًا في الاستماع لشيء استغراقًا كاملاً تعطلت حاسة الشم لديه. وإذا كانت حاسة الشم لديه مستغرقة كل الاستغراق في شم رائحة زكية تعطلت حاستا السمع والبصر. وعليه فإذا بلغت حاسة من حواس الإنسان الكمال في عملها تعطل معها عمل بقية الحواس، ولكن إذا لم يشغّل الإنسان أية حاسة من حواسه فإن ذلك يؤدي إلى إثارة أفكار مختلفة. فإذا كانت إحدى الحواس منشغلة فلا تراود المرء أفكار متعلقة بالحواس الأخرى، لأن تلك الحاسة تضع حدًّا لأفكار أخرى. وعليه فإذا كانت الأعين تعمل عملها أثناء الصلاة وتكون مشغولة في النظر إلى مكان معين فلن ترد إلى الذهن أفكار مختلفة أخرى. لقد ثبت هذا الأمر اليوم بعد التجارب العلمية ولكن النبي ﷺ كان قد أدركها قبل ثلاثة عشر قرنًا من الزمان وأمر بفتح الأعين أثناء الصلاة.

إضافة إلى ذلك أدرك النبي ﷺ تلك الحاسة التي يستطيع المؤمن بتشغيلها إنقاذ نفسه من التشتت الفكري. فلو كان قد أمر باستخدام حاسة الشم لكان لزامًا على المصلي تأمين عطور معينة ولكن لا يسع الإنسان التحكم بحاسة الشم إذ عند مجيء المصلين الذين وضعوا عطورًا مختلفة أو عند مرور الناس من قربه فلا بد أن تتنبّه حاسة الشم من هنا وهناك مما سيؤدي إلى التشتيت الفكري عنده. وحاسة السمع أيضًا تشبة حاسة الشم، ومعنى ذلك أنه ليس بيد الإنسان أن يسمع ما يريد وألا يسمع ما لا يريد، بل الإنسان مضطر إلى سماع كل الأصوات التي تتعالى في وقت واحد، والحق أنه لو ارتفعت أصوات متعددة في وقت واحد صعب على الإنسان سماع شيء منها. فلو كان الاعتماد على حاسة السمع فإمّا أنها تسمع كل الأصوات أو أنها لا تسمع أيًّا منها. أما حاسة البصر فعلى عكس الحواس الأخرى يقدر الإنسان على التحكّم فيها وبإمكانه حصرها في مكان دون سواه، وأن يغضّ الطرف عما لا يريد رؤيته، وبإمكانه التركيز على شيء يريد رؤيته. وقد اختار النبي ﷺ هذه الحاسة بتوجيه من الله تعالى للمحافظة على التركيز في الصلاة وأمر بقصر النظر على موضع السجود. وإلى جانب ذلك أمرنا ألا يكون في محل السجود ما يلفت النظر، بل ينبغي توفير

وحدة المشهد أي أن يكون موحَّد النمط وعندما يحصر المسلم نظره في موضع السجدة فسينال منه فوائد كثيرة منها:

أولاً: ستساور قلبه فكرة السجدة مما يؤدي به إلى الاستغراق الكامل في العبادة.

ثانيًا: سيتوقف عمل الحواس الأخرى التي من شأنها وفق القاعدة المذكورة إما أنْ تنسدّ كلها أو تتحرّر دون وازع ورادع.

ثالثًا: لما كانت التصورات الخارجية هي التي تثير الأفكار، ولا يطّلع الإنسان على التصورات الخارجية إلا من خلال حواسه، فعند تشغيل حاسة البصر تتعطّل الحواس الأخرى إلى حد ما، ولن يكون أمام الأنظار ما يشغل عن الصلاة أو يثير أفكارًا أخرى مما يفضي إلى المحافظة على التركيز في الصلاة والحصول على الخشوع فيها.

لقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قد عُلّق ستارٌ موَشّىً بالصور أمام المكان الذي كان يصلي فيه فأمر بإزالته من هناك لأنه يؤدي إلى تشتيت التركيز. (انظر: البخاري، كتاب الصلاة، باب إن صلى في ثوب مُصَلَّبٍ أَوْ تَصَاوِيرَ هَلْ تَفْسُدُ صَلَاتُهُ وَمَا يُنْهَى عَنْ ذَلِكَ). وقد أصدر هذا الأمر لفائدة أمته.

الطريق الثالث عشر

وهو ما ذكرته لكم سابقًا أيضًا أن من يقوم للصلاة فليقم بنية الصلاة وبقصدها، وعليه أن يعزم على أنه سيسعى جاهدًا لطرد الأفكار الأخرى. لا شك أن الجميع يعرفون أنه ينبغي طرد جميع الأفكار أثناء الصلاة ولكن الإنسان ينسى كل ما كان قديمًا لذلك ينبغي عليه أن يجدد هذا العزم كلما قام للصلاة أنه لن يدع أي فكرة خارجية تقربه أثناء الصلاة.

الطريق الرابع عشر

من صلى مقتديًا خلف الإمام فإن قراءة الإمام في الصلاة وتكبيراته تنبّهه وتوقظه مرة بعد أخرى، وكأن الإمام يحفظه من الضياع، ويتضّح من هنا أهمية الصلاة بالجماعة خلف الإمام. ولكن عند صلاته منفردًا ينبغي أن يتأسى بأسوة النبي ﷺ والصحابة الكرام رضي الله عنهم والأولياء العظام رحمهم الله وهي أن يكرّر قراءة بعض الآيات التي تبعث على خشية الله تعالى، مثلاً عند قراءة الفاتحة يكرر كلمات: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وذلك إذا كانت نفسه ملتهية بأفكار أخرى فتنْدم وتذْكر بأنه لا يليق بها أن تدّعي بلسانها عبودية الله تعالى وهي مشتتة بأفكارها هنا وهناك.

الطريق الخامس عشر

وهذا الطريق أوجّهه لأولئك الذين لا تفقد نياتهم مفعولها بعد مدة وجيزة. فكما أن الطفل الرضيع يحتاج إلى إرضاعه مرة بعد أخرى على فترات متقاربة لأنه لا يقدر على تحمُّل الجوع إلى مدة طويلة، ولا يستطيع هضم غذاء كثير مرة واحدة كذلك يحتاج بعض الناس إلى سند لهم بعد كل فترة، فعليهم أن يعقدوا النية عند قيامهم للصلاة أنهم لن يدعوا أية فكرة أخرى تقربهم حتى الركوع، فإذا ركعوا عزموا مرة أخرى على طرد كل الأفكار الأخرى إلى أن يقوموا منه، وهكذا يجب أن يعقدوا نية جديدة عند كل حركة وحالة، وهكذا سينالون قوة كفيلة بطرد جميع الأفكار المشتتة.

الطريق السادس عشر

إذا استسلم الإنسان لأفكاره فلن يقدر على التخلص منها، ولكنه لو قاومها وعزم على أنه لن يدعها تقرب إليه فلن تأتيه. لذلك ينبغي مقاومة الأفكار وطردها، ويجب التصدي فورًا لمثل هذه الأفكار. فمثلاً إذا خطر ببال أحد أن ولده مريض، وماذا عسى أن يكون حاله الآن فيجب أن يردّ على نفسه أن ابني هذا لن يتحسّن من

خلال تفكيري فيه، كما أن عدم التفكير فيه لن يزيد في مرضه، لذلك الأفضل لي ألا أفكّر فيه، وهكذا يجب أن يتعامل مع جميع الأفكار حتى يسيطر عليها.

الطريق السابع عشر

عندما يصلي أحد صلاة النفل في بيته فليرفع صوته في القراءة إلى درجةٍ تسمعها أذناه، وذلك لأن حاسة السمع لا تنقطع عن العمل كلية أثناء الصلاة بل تظل تعمل إلى حد ما، فإذا كان اللسان يذكر الله تعالى وتسمع له الأذنان أيضًا وتنتبهان إليه فإن ذلك يؤدي إلى زيادة التركيز والاستغراق في الصلاة. ينبغي العمل على هذا الطريق في قيام الليل لأن جوّ النهار مليء بالضجيج فلو حاول أحد استخدام حاسة السمع لكان هناك خطرٌ كبير لتشتت تركيزه.

الطريق الثامن عشر

وهذا الطريق نابع من حقيقة أن كل حركة جديدة تولّد في النفس أفكارًا جديدة. أما الحركات المسنونة في الصلاة فهدفها العبادة لذلك فإنها مفيدة ولا تسبب حرجًا في الصلاة، ولكن الحركات الأخرى لا بد أن تسفر عن تشتيت الأفكار. لذلك نهانا النبي ﷺ عن أية حركة إضافية غير التي يضطر إليها المصلي.

والحقيقة أن مثل هذه الحركة غير الهامة تؤدي إلى تشتيت الأفكار، فمثلاً لو لمس أحد معطفه دون أية حاجة فلعله يتذكر أن هذا المعطف أصبح قديمًا فينبغي أن يطلب من خياطة صنع معطف جديد، وهنا سيفكّر، من أين سيؤمّن المال لهذا المعطف لأن راتبه قليل، ولعله قد تأخّر في قبض راتبه، وإذا كان سبب ذلك يعود إلى خطأ المشرف على عمله فسيلومه أيضًا، وسيظل في دوّامة من هذه الأفكار بأنه سيفعل به كذا وكذا، وهكذا يبدّد كل هذا الوقت في تلك الأفكار حتى يسمع صوت الإمام: "السلام عليكم ورحمة الله" فيسلّم مع الجماعة. فبما أن الحركة الجديدة تولّد فكرةً جديدة لذلك نهى النبي ﷺ عن أية حركة جديدة في الصلاة وأكد على هذا الأمر إلى درجة أنه إذا كانت هناك حصى في موضع السجود فلا ينبغي أن يقوم المصلي بإزالتها، اللهم إلا إذا كانت تؤذيه كثيرًا فبإمكانه إزاحتها مرة واحدة. وعليه فينبغي تجنُّب مثل هذه الحركات تجنبًا كاملًا أثناء الصلاة.

الطريق التاسع عشر

هو أن يحافظ المصلي على الحيوية والنشاط أثناء القيام والركوع والسجدة، أي إذا قام فليقم بحيوية وتيقُّظ تام وألا يقوم على رِجل

واحدة ويرخي الأخرى لأن العدو الشيطان يهاجم ويحكم سيطرته عندما يتكاسل المصلي. إضافة إلى ذلك فإن النشاط الظاهري يؤثر على النشاط الباطني أيضا لذلك أمر النبي ﷺ بالمحافظة على النشاط والحيوية أثناء القيام بكل حركات الصلاة.

الطريق العشرون

وهو طريق أسرف بعض الصوفيون في الأخذ به. أكره الإسراف، ولكن المؤمن يستطيع أن يستفيد من هذه الطريق أيضًا. ألا وهو معاقبة النفس.

كان الجنيد البغدادي رحمه الله من كبار الصلحاء، وكان الشبلي رحمه الله – الذي كان واليًا على إحدى الولايات - تلميذًا له وكان في منتهى الإخلاص وخشية الله، كان الشبلي يومًا في مجلس الملك إذ خلع الملك على أحد الزعماء الكبار خلعةً تقديرًا لبعض خدماته الجليلة للملك والدولة. وكان هذا الزعيم مصابًا بالزكام فسالَ أنفُه، وكان قد نسي إحضار المنديل معه فاستغفل الملك ومسح أنفه بالخلعة، ولكن الملك رأى ذلك واستشاط غضبًا وقال: أهذا هو تقديرُك لخلعتنا؟ كان الشبلي رحمه الله يراقب كل ذلك، وتأثر تأثرًا شديدًا بسبب الخشية الإلهية في قلبه حتى أغمي عليه،

فلما أفاق قدّم استقالته إلى الملك. سأله الملك عن سبب استقالته فقال: لقد منحت هذا الرجل خلعة ولكنه لم يقدّرها حق القدر فغضبت عليه غضبًا شديدًا، وأستطيع أن أتخيّل العقاب الذي سأتلقاه إن لم أقدّر نعم الله تعالى التي أنعمها عليّ، وأنكرتُها و لم أشكره عليها. ثم توجه الشبلي إلى الجنيد البغدادي رحمه الله ورجاه أن يقبله تلميذًا عنده. قال الجنيد: لن أقبلك تلميذًا لأنك كنت واليًا ولعلك ارتكبت ظلمًا في ولايتك بحق خلق الله تعالى. سأل الشبلي: وهل من علاج لتدارك تلك الأخطاء؟ قال الجنيد: اذهب إلى ولايتك واطرق كل باب واسأل الجميع أن يعفوا عنك أو يقتصّوا منك لظلمك. فنفّذ الشبلي طلب الجنيد بحذافيره.

يُروى عن الشبلي رحمه الله أنه كان إذا قام يصلي صلاة النفل وشعر بالكسل أو مراودة بعض الأفكار عن الصلاة أخذ عصًا وضرب بها جسده إلى درجة أنْ كانت العصا تنكسر من شدة الضرب، ثم يبدأ صلاته. كان في البداية يضع عنده رزمة كبيرة من العصيّ، وكان ذلك غلوًّا شديدًا وأرى أنه لا يرضى به الإسلام، ولكنه كان شيئًا يتعلّق بنفسه هو فلا أعترض عليه. وأرى أن الطريق الأمثل لمعاقبة النفس هو أنه إذا راودته فكرة ما في الصلاة فعليه أن يتذكّر العبارة التي أثناء قراءتها راودتْه تلك الفكرة، وإذا

عرف ذلك فليعِد القراءة من تلك العبارة، فعندما ترى نفسه أن هذا الإنسان لا يخضع لأوامرها بل ينيب إلى الله تعالى مرة بعد أخرى فستَيْأَس وتكفّ عن تشتيت أفكاره وتحصل له السكينة والطمأنينة في الصلاة.

الطريق الحادي والعشرون

وهو طريق عظيم ونافع جدًّا وهو العمل بقوله تعالى: ﴿هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون: ٤) أي أن المؤمنين يعرضون عن أعمال اللغو، ومن كانت لديه عادةُ الخوض في اللغو انتابته هواجس وأفكار خلال الصلاة. ولكنهم لو حاولوا مقاومة هذه الأفكار منذ بداية اليوم لما تعرّضوا لتشتُّت الأفكار. ولكن كثيرًا من الناس يظلون يفكرون في أمور لا طائل منها كالشيخ تشلي[١٢]، في حين أنها لا تُسمن ولا تُغني من جوع. ويجب ألا يسمح أحد لنفسه بالخوض في مثل هذه الأفكار الخيالية والظنية، ويستثنى من ذلك التفكير في أمور مفيدة ونافعة، إذ لا حرج في ذلك أبدًا، أما التفكير في أمور قد تمّت وانتهت فلا فائدة من الخوض في التفكير فيها بل هو جهل كبير.

---

[12] الشيخ تشلي، شخصية معروفة في الأدب الأُردي ويُضرب به المثال لمن يعمّر صروحًا وقصورًا خيالية دون أن يفعل شيئًا على صعيد الواقع. (المترجم)

ومن الحقائق الثابتة أن القوى الإنسانية تتجه حيثما يوجهها صاحبها، فمن يدع ذهنه يفكر في الأفكار غير المعقولة فلن يعود قادرًا على التركيز في الأمور المعقولة. لذلك يجب منع الذهن من الخوض في أفكار اللغو وتعويده على التفكير في الأمور السامية والمفيدة. فلو سعيتم على هذا النحو لوجدتم أن طبائعكم أخذت تميل إلى التفكير في الأمور المفيدة دومًا. واعلموا أنه من اللغو ومن غير المفيد أن يسرح المرء بفكره بعيدا عما بين يديه من شغل. فلن يميل ذهن المصلي أثناء الصلاة إلى هنا وهناك إذا كان قد عوّد نفسه على التفكير في الأمور المفيدة.

الطريق الثاني والعشرون

وهو طريق عظيم أيضًا ويساعد على بلوغ أسمى درجات الروحانية. لقد سُئل الرسول الكريم ﷺ: ما الإحسان؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. (البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة)

أي أن يقف العبد بين يدي الله تعالى للعبادة وكأنه يراه، أو على الأقل يشعر بأن الله تعالى يراه. فإذا قمتم إلى الصلاة فاستحضِروا

هذا المشهد أمام أعينكم وكأنكم واقفون في حضرة الله تعالى ترونه أمامكم، ليس بشكله وصورته بل بجلاله وعظمته، وهكذا تترسخ في القلب عظمة الله تعالى وجبروته، وتدرك النفس أنه يجب عليها أن لا تفعل أي لغوٍ في هذه الحالة. وبعد كل ذلك إن لم تتمكنوا من رؤية الله تعالى على النحو المذكور فأيقِنوا بأن الله تعالى يراكم وهو مطّلع على جميع أفكار قلوبنا. فليراقب الإنسان هل قلبه أيضًا يتبع لسانه عندما يقول الحمد لله أم إنه مستغرق في أفكار أخرى. يقول النبي ﷺ: مَنْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ. (البخاري، كتاب الوضوء)

لاحظوا الآن، كم يحظى من العظمة والفضل من يحظى بمثل هذه الحالة دومًا! ومن هنا ندرك أن التوجُّه والخشوع بين يدي الله تعالى ليس بأمر بسيط أبدًا. كما ينبغي ألا تستهينوا بهذه الطرق التي أخبرتكم بها بفضل الله تعالى ومنته بل ينبغي العمل بها كاملة واعلموا أنكم إذا عملتم بها فتنالون بركات عظيمة.

وفي التسليم الذي تنتهي الصلاة به إشارة عجيبة تنبه الإنسان إلى انقطاعه إلى الله في الصلاة، وذلك لأن المرء يقول السلام عليكم عندما يَقْدُم من مكان ما، فكأن المؤمن يعني من قوله السلام عليكم ورحمة الله أنني كنت قد ذهبت إلى حضرة الله تعالى من أجل إظهار

العبودية له، والآن عدت من عنده وجئت لكم منه بالسلام والرحمة. ولكن لما كان هذا الشخص موجودًا في مكانه بجسمه فلا يراد من كلامه إلا هذا المعنى: أن روحه كانت ساجدة على أعتاب الله تعالى، وكان منشغلًا في العبادة وكأنه كان غائبًا عن هذا العالم ومنقطعًا عنه.

باختصار، يدل التسليم عند نهاية الصلاة على أنه ينبغي على المؤمن أن يحفظ صلاته من خلال الخشوع والحضور فيها لأنه يكون حاضرًا بين يدي الله تعالى، وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله: ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (الأنعام: ٩٣) أي أن المؤمنين يحافظون على صلواتهم، وهذا يعني أن الشيطان يريد إفساد صلواتهم ولكنهم ينقذونها ويحفظونها من هجماته. فعلى كل واحد أن يسعى جاهدًا للمحافظة على صلاته، وينبغي أن يشعر لدى قيامه إلى الصلاة وكأنه وقف بين يدي الله تعالى، وإذا أنهى صلاته بشّر مَن كانوا على يمينه ويساره بأنه قد جلب لهم من الله تعالى تُحفَ السلام والرحمة. ولكن على من يظل مشغولًا في أحاديث نفسه ولا يقف بين يدي الله حقيقةً أن يفكّر في أنه سيكون كاذبًا لدى قوله: السلام عليكم ورحمة الله، إذ إنه يريد بذلك إخبار الناس أنه قد عاد من حضرة الله تعالى في حين أنه لم يذهب إلى هناك أصلًا.

حافظوا على صلواتكم وصدّوا هجمات الشيطان عنها وقاوموه لأنه يريد إبعادكم عن الله تعالى. واعلموا أنكم لو صارعتموه طول صلاتكم ولم تخضعوا له فإن الله تعالى يعدّكم حاضرين بين يديه، ولكنكم إذا خضعْتم للشيطان فسيرفع الله تعالى عنكم يدَه. لذلك ينبغي ألا تتركوا المقاومة لأنكم الأعلون في النهاية إذا بقيتم على هذا المنوال.

الذكر الجهري

لقد ذكرت إلى الآن ثلاثة أنواع من الذكر الإلهي؛ أولها الصلاة، ثانيها القرآن الكريم، وثالثها الأذكار الأخرى التي تُسنُّ المداومة عليها إلى جانب الصلاة، ويستحسن أن يخلو بها المؤمن. وبقي أن نذكر نوعًا واحدًا وهو ما يُذكر في المجالس أو بالجهر، وله طريقان:

الطريق الأول

هو أن يذكر المؤمن كلما اجتمع مع إخوانه المؤمنين قدرات الله تعالى وجلاله ومننه وأياديه بدلًا من الخوض في أمور تافهة ولاغية، فعليهم أن يتذاكروا آيات الله تعالى لأن ذلك يبعث على صفاء القلب الذي يتلقّى تأثيرات طيبة وصالحة من مثل هذه الأحاديث. ولقد روي عن الرسول الكريم ﷺ أنه خرج من بيته يومًا إلى المسجد فوجد بعض الناس مشغولين في صلاتهم وبعضهم يجلسون في

حلقة ويتجاذبون أطراف الأحاديث الدينية. جلس النبي ﷺ معهم وقال ما معناه: عملكم هذا أفضل مما يقوم به الآخرون.

ويتضّح من هنا أن الذكر الجهري يفضَّل أحيانًا على الذكر السري. لقد قلت "أحيانًا" لأن الذكر الخفي ضروري في وقته. ولكن إذا كان الناس مجتمعين أفادهم الذكر الجهري لأنه بواسطة تبادل المؤمنين تجاربهم الروحية يفيدون ويستفيدون، وفي مثل هذه المناسبات قد يبعث على الرياء تفرّد أحدٍ بالذكر الخفي. ودرس القرآن الكريم أيضًا يدخل ضمن هذه الأذكار الجهرية والخطب الدينية وإلقاء الخطب في جموع المؤمنين أيضًا يدخل في الذكر الجهري.

الطريق الثاني

والنوع الثاني لهذا الذكر الجهري هو ما يمكن القيام به في مجالس المعارضين. لقد اقترف أهل الأديان كلها ما عدا الإسلام تشويها أو نقصًا في صفات الله تعالى، فإن ذكر وصف الله تعالى في مجالسهم بصفاته الحقيقية الجليلة وبكل ما تتسم من جلال وعظمة لهو أيضًا يَدخل في الذكر، وذلك لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر ٢-٤) فهنا قد أُمرنا بإنذار الناس من عذاب الله تعالى بالإضافة إلى ذكر عظمته وتكبيره. إن التكبير من الذكر

الإلهي. فذكرُ صفات الله تعالى أمام أهل الأديان الأخرى وإثباها بسرد الأدلة أيضًا من الذكر الإلهي. وهو ما أشير إليه في سورة الأعلى التي تبدأ بـــ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (الأعلى: ٢). وبقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (الأعلى: ١٠) قد وصف الله تعالى هذا العمل المذكور بالذكر.

فوائد الذكر الإلهي

والآن أنتقل إلى سرد بعض الفوائد من الذكر الإلهي. إن أعظم فائدة يجنيها المؤمن من الذكر الإلهي هي الحصول على مرضاة الله. وهذا لا يعني أنه عمل صالح مثل الأعمال الصالحة الأخرى فيؤدي إلى نيل رضى الله تعالى كغيره، كلا، بل يرضى به الله تعالى على وجه الخصوص، وذلك لأنه كلما كان العمل كبيرًا كان جزاؤه كبيرًا أيضًا. يقول الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، وقال أيضًا: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ (التوبة: ٧٢) وهنا ذَكَر أن رضوان الله أكبر أيضًا. لا يُجازَى العملُ الأكبر بجزاء أصغر بل يُجازى بجزاء أكبر. وقد دلّ وصف "أكبر" في كلتا الآيتين أن رضوان الله في الحقيقة جزاء لذكر

الله. ولقد ذكر الله تعالى في هذه الآية إنعامات مختلفة ثم أخبرنا بقوله ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ أن الرضوان شيء مختلف عن كل ما ذكر وهو أكبر من كل شيء. والحق أن أكبر جائزة يمكن أن يتلقاها المرء هي أن يرضى عنه الله تعالى. ولقد أوصانا الله تعالى بالذكر الإلهي إذا كنا نريد أن نحظى بهذا الإنعام الكبير وهو رضوان من الله.

الفائدة الثانية

هي أن الذكر يبعث على طمأنينة القلب، لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٩). فلماذا يا ترى تحصل للقلوب الطمأنينة بذكر الله تعالى؟ ذلك لأن الإنسان يتعرّض للقلق والاضطراب عندما يظن أنه على وشك الهلاك بمصيبة أصابته، ولكنه لو علم أن هناك علاجًا لكل مصيبة ونائبة فلن يقلق. فمن يذكر الله تعالى موقنًا أنه يملك قوات وقدرات لا تعدّ ولا تحصى ويقدر على إزالة كل نوع من النوائب والمصائب، فيقول لن أخاف ولن أقلق ما دام محبوبي وإلهي هو هذا المحبوب القادر على درء كل مصيبة، وهكذا تسكن نفسه وتحصل له الطمأنينة.

الفائدة الثالثة

هي أن الله تعالى يتخّذ الذاكر وليًّا له، ويذكره عنده وهو لا يزال في هذه الدنيا، لقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة: ١٥٣)، ولا يعني ذكرَ اللهِ المؤمنينَ هنا إلا قبولُهم في حضرتِه، فكما يعني ذِكرُ ملوكِ الدنيا بعضَ الناس دعوتَهم إلى القصر، كذلك يفعل الله تعالى بمن يريد أن يقرّبه إليه.

الفائدة الرابعة

هي أن ذكر الله تعالى ينهى الإنسان عن السوء والمنكر، وذلك لقوله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، وكما وضّحت أن الصلاة أيضًا ذكر الله تعالى، فثبت أن ذكر الله تعالى ينهى عن الفحشاء والمنكر، ولكن لماذا؟ لأن ذكر الله تعالى شيء ثقيل فإذا قذفنا به على رأس الشيطان دمغه وأودى به فلن يعود يحرّض على السيئات.

الفائدة الخامسة

هي الحصول على ثبات القلب وروح الصمود، فبذكر الله تعالى يظل المؤمن صامدًا ومتصدّيًا ولا يقبل الهزيمة، كما قال تعالى: ﴿يَا

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأَنْفال: ٤٦) أي يا أيها المسلمون إذا خرجتم للقاء عدوٍّ أقوى منكم وأكثر منكم جندًا فاذكروا الله تعالى كثيرًا، وستكون النتيجة أن العدو لن يصمد أمامكم بل سيلوذ بالفرار وستظفرون بالفتح عليه.

الفائدة السادسة

هي أنه إذا كان ذاكرُ الله تعالى مخلصًا ويذكر الله تعالى بصدق القلب فإنه يفلح في مرامه ويحقّق أهدافه، وهذا أيضًا ثابت من الآية الكريمة التي تلوتها ضمن الفائدة الخامسة، يقول الله تعالى فيها: ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأَنْفال: ٤٦).

الفائدة السابعة

أن المؤمن سيدخل بواسطته ضمن أولئك السبعة الذين يظلهم الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله. (انظر: سنن الترمذي، أبواب الزهد، باب ما جاء في الحب في الله) وأحد هؤلاء السبعة المذكورين في الحديث النبوي هو ذاكرُ الله تعالى. يقول النبي ﷺ سيكون ذلك اليوم فظيعًا بحيث يكون الأنبياء أيضًا خائفين، وسيبدي الله تعالى في ذلك اليوم غضبًا لم يبدِ مثله قط، لأن جميع الأشرار يُعرَضون أمامه،

وتدنو الشمس منهم دنوًّا كثيرًا، ففي مثل هذه الحالة ما أسعده من شخص ذلك الذي يحظى بظل الله تعالى!

الفائدة الثامنة

هي أن الذاكر يصبح مستجاب الدعوات. إن جميع الأدعية الواردة في القرآن الكريم مسبوقة بالتسبيح والتحميد، وأوّلُ هذه الأدعية سورةُ الفاتحة التي استهلّها ﷻ بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة: ١-٤) ثم بعد ذلك قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ويخصُّ له تعالى نصف هذه الآية وللعبد نصفه الآخر. ثم ذكر: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٦-٧) وهكذا فقد استهلها الله تعالى بالذكر ثم ذكر الدعاء. ونرى في حياتنا الدنيوية أيضًا أن من يسأل الناس ويستجديهم يُسبق سؤاله بمدح المسئول والثناء عليه ثم يقدّم مسألته. وعليه فقبل وقوف المرء بين يدي الله تعالى ينبغي أن يقرّ بقدرة الله تعالى ويعترف بعجزه وضعفه. لقد دعا يونس عليه السلام لنفسه على هذه الشاكلة حين قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٨) أي أنه سبّح الله

تعالى وحمده في البداية ثم عرض عليه حالته. يقول النبي ﷺ عن الله ﷻ: مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ. (الترمذي، أبواب فضائل القرآن عن رسول الله، بَاب مَا جَاءَ كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ)، لا يُفهم من هذا الحديث أن الذكر يغني عن الدعاء، كلا، بل قُرِن الذكر بالدعاء في الفاتحة التي هي أم القرآن، كما عُلّمنا دعوات كثيرة في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. فمعنى الحديث هو أن الله تعالى يعطي أكثر للداعي الذي يخصص من دعائه وقتًا يذكر فيه الله تعالى، مقارنةً مع الذي يقتصر على الدعاء.

الفائدة التاسعة

هي أن من يذكر الله تعالى تُغفَر ذنوبه، لقول النبي ﷺ إن من كبّر الله وحمده وسبحه غَفَرَ اللهُ لَهُ ذُنُوبَهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ. (الترمذي، أبواب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء إذا أوى إلى فراشه)[13]

[13] نص ما ورد في المرجع المذكور كالتالي: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ قَالَ حِينَ يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذُنُوبَهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ وَإِنْ كَانَتْ عَدَدَ وَرَقِ الشَّجَرِ وَإِنْ كَانَتْ عَدَدَ رَمْلِ عَالِجٍ

الفائدة العاشرة

هي أن عقل الذاكر يشحذ ويستنير بحيث تنكشف عليه معارف ونكات تثير حيرته أحيانًا، وذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩١-١٩٢).

الفائدة الحادية عشرة

هي أن التقوى تتولّد في قلب الذاكر، وذلك لقول النبي ﷺ فيما يروي عن ربه ﷻ أنه قال: "فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً...... (البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ويحذّركم الله نفسه)

وَإِنْ كَانَتْ عَدَدَ أَيَّامِ الدُّنْيَا. (الترمذي، أبواب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء إذا آوى إلى فراشه). (المترجم)

يقول الله تعالى: إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، فمثلاً إذا قال العبد: سبحان الله، يقول الله تعالى أيضًا: لِتَفُزْ أنت أيضًا بالطهارة والعفة، وإذا قال الله تعالى لحدوث شيء فإنه لا بد أن يتم ويكون. ثم قال تعالى: وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، أي أنني أُعلي ذكر هذا العبد بين المتقين والصالحين، فيشهد الناس لتقواه.

الفائدة الثانية عشرة

هي أن ذكر الله تعالى ينمي محبة الله، وذلك لأن الإنسان يأنس بمَن كان على علاقة معه كل حين إلى درجة أنه يحب القرية أو المدينة التي يقطنها. فإذا دأب المرء على ذكر الله تعالى صباح مساء وفي كل مناسبة ومرحلة فلا بد أن محبة الله تعالى ستزداد في قلبه رويدًا رويدًا.

هذه هي الفوائد من ذكر الله تعالى التي أجملتها لكم، وأدعو الله تعالى أن يوفقني وإياكم للاستفادة منها، آمين.